الفصل الحادي والعشرون

شخصية الزعيم

obeikandl.com

لا نزاع أن مصطفى كامل هو من عظماء الرجال، ومن زعماء الشعوب وقادتها الأبطال في ميادين الحرية والاستقلال، ولا مراء في أنه باعث الحركة الوطنية التي ظهرت في مصر عقب الاحتلال البريطاني.

لقد أوضحنا في الفصل الأول من الكتاب كيف ظهر واضطلع بأعباء الدعوة الوطنية، في عصر لم كين مواتيًا لها و لا مستعدًا لمناصرتها، فهذه الشخصية الكبيرة التي حملت عبء الجهاد، ودعت الأمة إلى الانضواء تحت لواء الحرية والاستقلال، في وقت تحالفت فيه أسباب اليأس والجمود، يجب أن تكون شخصية بالغة منتهى القوة، لكي تستطيع أن تشق لدعوتها طريقًا وسط هذه العوامل المثبطة للعزائم، فما هي العوامل التي تألفت منها هذه الشخصية الفذة؟

إن شخصية مصطفى كامل تتركز في قوى ثلاث، هي التي ساعدته على النجاح في عمله العظيم، وهي إيمانه برسالته، وأخلاقه وصفاته، ثم وطنيته الصادقة.

إيمانه برسالته

فإيمانه برسالته، هو ابرز الجوانب في شخصيته، ويبدو لك هذا لإيمان من ذلك الكتاب الذي بعث به إلى مدام جولييت آدم في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥، وهو بعد في الحادية والعشرين من عمره، إذ يقول فيه:

" إني لا أزال صغيرًا ولكني لي آمالا كبارًا، فإني أريد أن أوقظ في مصر الهرمة مصر الفتاة، هم يقولون إن وطني لا وجود له، وأنا أقول يا سيدتي إنه موجود، وأشعر بوجوده بما آنس له في نفس من الحب الشديد الذي سوف يتغلب على كل حب سواه، وسأجود في سبيله بجميع قواي، وأفديه، بشبابي، وأجعل حياتي وقفاً عليه".

فهذا الكتاب الوجيز في عبارته، الرائع في أسلوبه، يطالعك بقوة الإيمان الذي يملأ قلب صاحبه، فهو مؤمن بحياة الوطن، ولو خالف الناس جميعًا، مؤمن برسالته إيمانًا جعله يجود في سبيلها بشبابه وحياته، وقد لازمه هذا الإيمان طول حياته على تعاقب السنين، وهذا هو سر نجاحه، قال في سنة ١٩٠٤: "سأبقى حتى الممات حاملاً لواء الاستقلال، إذ أجد حياتي في هذه العقيدة، وبغير هذه الشعلة الوطنية لا أستطيع الحياة".

وكتب إلى مدام آدم في ١٣ أغسطس سنة ١٩٠٦ يقول: "غدًا تذكار ميلادي إذ أبلغ الثانية والثلاثين، وما عساي أن أعيش أيضًا لأخدم مصرنا العزيزة؟ وعلى كل حال فإني لا أترك لحظة تمر من حياتي دون أن أغرس حبها في قلوب مواطنيّ، وأتمم عملي إلى النهاية".

obeikandi.com

فهذا الإيمان هو قوام شخصيته، ومصدر قوته ولولاه لما تابع الجهاد رغم العوامل المثبطة، وهو الذي يسر له تذليل كل عقبة اعترضته في جهاده؛ وجعله يضطلع بأعباء الجهاد المضني، ويسير بالأمة في طريق الحرية والاستقلال، قال صديقه الأستاذ داود بركات في هذا الصدد: "اعتقد في نفسه القدرة على العمل، فصغر كل كبير في نظره. وأذكر من أقواله يومًا: "إن أغسطس قيصر لم يكن كبيرًا لأن أمته كبرته، بل لأنه سار أمامها فعرفت أنه كبير".

صفاته وأخلاقه

كان الفقيد شابا في متقبل العمر، قمحي اللون، جميل الطلعة، متوسط القامة، نحيف الجسم، عريض الجبهة، براق العينين، يشع منهما الذكاء وقوة العزيمة.

إن الجانب الأخلاقي هو بلا مراء من أعظم مميزات هذه الشخصية الفذة ولا غرو، فالأخلاق هي سياج الوطنية، وحصنها الحصين، وهي قوامها وغذاؤها الدائم ولقد كان مصطفى كامل زعيمًا أخلاقيًا، و زعيمًا وطنيًا، فلا جرم أن كانت وطنيته ثابتة كالطود، راسخة كالجبال.

وأبرز أخلاقه وصفاته الشجاعة الأدبية، والصدق، والصراحة، والإخلاص، والصبر وقوة العزيمة والثبات، ثم الوفاء وعلو النفس وعلو الهمة، والجود والكرم، هذه الأخلاق هي قوام وطنيته، وبها استطاع أن يقوم على دعوته، ويثابر عليها، ويناضل عنها طول حياته، ولولا قوة أخلاقه لما أمكنه أن يغالب العقبات، ويقاوم المؤثرات والمغريات.

كان شديدًا في الحق، يحب الصدق والصراحة، ويكره النفاق والرذيلة، يجاهر بما في ضميره بشجاعة أدبية كبيرة، لا يهاب في الحق كبيرًا، وكان مع ذلك وديعًا يخفض جناحه للأصاغر وأواسط الناس، ويعطف عليهم.

كان شديد الذكاء، سريع الخاطر، قوي الذاكرة، بالغ الحجة، عظيم النشاط محبا للعمل، لا يكل منه، ولا يعرف الملل والهوادة.

وكان وفيا لأصدقائه، بارًا بأهله وذويه، يعطف عليهم ويعد نفسه أبًا لهم جميعًا، لم يتزوج في حياته قط، وانحصر حبه العائلي في والدته وأقاربه وذويه ظهر وفاؤه لوالدته حين مرضت، فكان مشغول الفؤاد بمرضها، شديد العناية بأمرها، يكتب عن أنبائها إلى مدام جولييت آدم في رسائله إليها، وقد حزن عليها حزنًا شديدًا حين أدركتها الوفاة [1]، كتب في هذا الصدد إلى مدام آدم يقول:

---

(١) توفيت يوم الأحد ١٢ مايو سنة ١٩٠٧.

"قد رزئت أكبر رزء في الحياة، فإن والدتي العزيزة، مالكة فؤادي، قد فارقت الدنيا يوم الأحد الماضي، إن حزني لشديد، وحياتي كادت تنقضي!"

فهذا التعبير يدلك على مبلغ وفائه لوالدته، وحبه لها، وتعلقه بها، وحزنه عليها، وهذا لعمري أبلغ مظهر لوفاء الإنسان في هذه الدنيا.

ويبدو وفاؤه لأهله وذويه من رسائله إلى صديقه وزميله في الجهاد محمد بك فريد فإنه لا يكاد يخلو كتاب منها من سؤاله عنه، وعنايته بهم، واهتمامه بكل صغيرة وكبيرة من شئونهم، على كثرة مشاغله ومهامه الجسام.

كان جوادًا كريمًا يعطف على الفقراء والمعوزين ويحبهم، فكان لهم نصيب وافر في مدرسته، إذ خصص للمجانية قسمًا كبيرًا لتعليم أولادهم، وإليه ينسب فضل كبير في مبدأ الإسعاف، فقد عطف على قتيل حادثة الهماميل بالإسكندرية فأسعف أهله بماله ومساعيه، وعني بتعليم ابنه بفصل ذلك المبدأ الكريم.

وطنيته

أما وطنيته فلا نرانا في حاجة إلى التحدث عنها، فلقد خصصنا لها هذا الكتاب جميعه، إذ هو سجل لوطنيته الكبرى، فالوطنية تدو في كل ظاهرة من ظواهر حياته، وفي كل حركة من حركاته، وكل خاطرة من خطرات نفسه ولا غرو فقد ملكت عليه لبه ومشاعره وتفكيره، فكانت حياته هي الوطنية، واقتبست منها الأمة نهضتها الوطنية، وهي الشعلة التي انبثق نورها في أرجاء وادي النيل منذ ستين سنة، فأضاءت النفوس، وأحيت فيها الشعور الوطني، وحفزتها على الحياة والكرامة والجهاد القومي، بعد سنوات طويلة من الانحلال الوطني العام.

كانت وطنيته أسبق وأقوى من الجيل الذي ظهر فيه، وأقوى من الحوادث التي اعترضته، فليس يخفى أن هذه الحوادث كانت في مجموعها سلسلة هزائم، مثبطة للعزائم، على أنه قد تغلب عليها بقوة الوطنية والخلاق، وكان يزداد ثباتًا في الكفاح والنضال، كلما ازدادت في طريقه العقبات، وهنا وجه البطولة في تاريخه.

وتبدو قوة وطنيته في مثابرته على الكفاح وفي هذا الحركة الدائمة التي لم ينقطع عنها، والتي بيّنا أدوارها ومراحلها في فصول هذا الكتاب، فهذه الحركة التي لم يعترها الكلال فترة ما خلال الثماني عشرة سنة التي قضاها في الجهاد، هي عنوان وطنيته، وثمة عنوان آخر لها، وهو أن جهاده كان خالصًا لله والوطن، إذ كانت الحركة الوطنية لا ترمى في ذلك الحين على الحكم والمناصب، أو الجاه والمنافع، بل كانت سلسلة متصلة الحلقات، من المتاعب والتضحيات، ومن

هنا تتجلى بطولتها، ويسطع نورها وروعتها، فهذه الروح، روح التضحية والإخلاص هي رأس مال الشعوب في حياتها القومية، لأن المم إنما تتميز في ميادين الرقي والعظمة بمقدار إخلاص أبنائها لأوطانهم، وتفانيهم في خدمتها، وإيثارهم الصالح العام على منافعهم الشخصية.

سبيله إلى الوطنية

كان الفقيد لا يهتم طوال حياته إلا بالوطنية يبثها في نفوس النشء والجيل وكانت سبيله على غرسها في النفوس الدعوة والخطابة والصحافة والتأليف، والقدوة الصالحة في الاستمساك بالعروة الوثقى. كان معلمًا للجيل، أرشد الأمة إلى المثل العليا في حب الوطن والإخلاص له، ولذلك كان يعني بالتاريخ الوطني لجميع الشعوب، يستخلص منه دروس الوطنية الصادقة، ويلقنها لبنى مصر، كتب في هذا الصدد إلى مدام جولييت آدم في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٩٩ حين اعتزم إصدار اللواء يقول: "أشكرك كثيرًا إذ تفضلت بإرشادي إلى المؤلفات الخاصة بالتاريخ القومي والقصص الوطنية عن كل البلاد لكي ألقن الشعب إياها، فإنه يجب أن أنشر المثل العليا في الوطنية".

وكتب إليها في ٢٨ ديسمبر من تلك السنة يقول:

"إني أعمل الآن كثيرًا، وأملي أن يصير (اللواء) أول جريدة في الشرق، فإني أريد له أن يكون في وقت واحد عاملاً للوطنية المصرية، وواسطة بين العالم الأوروبي والعالم المصري، ولهذا رجوت منك أن تكتبي لنا بين آن وآخر مواعظ وطنية مما جرى في عصرك أو في بطون التاريخ".

وكان في دعوته وجهاده، في مقالاته وخطبه وأحاديثه، يسمو بالوطنية، ويوجهها إلى المثل العليا، وينزهها عن الخصومات والأحقاد الشخصية ويربأ بها عن الطعن في أعراض الناس وشخصياتهم، وكان عف القلم عف اللسان، وفي ذلك يقول في خطبته بالإسكندرية سنة ١٨٩٦: "إني أترفع عن أدافع عن بلادي بالطعن والسباب".

وان يحبب النفوس في الحرية، ويرغبها في الاستقلال الشخصي، ليمهد الجيل إلى الاضطلاع بأعباء الاستقلال القومي، ومن هنا جاء استحثاثه الشبان على العمل الحر والاعتماد على النفس، وترغيهم عن التواكل والتطلع إلى الوظائف، وله في ذلك خطب ومقالات عدة، أهمها خطبته بالإسكندرية يوم ٨ يونيه سنة ١٨٩٧ إذ قال فيها:

"أتركوا الأنباء معشر الآباء في الحياة الحرة، اتركوهم يخدموا الوطن ويخدموا أنفسهم في غير دائرة الوظائف، اتركوهم أحرار غير مقيدين بقيود الرواتب، ابعثوا بهم إلى الخارج ليدرسوا

obeikandl.com

التجارة والصناعة، ويؤسسوا في البلاد المصانع والمعامل، تزدادوا بذلك شرفا وفخرًا وتزدادوا أمام الله وأمام الوطن مثوبة وأجرًا".

وكان كثير الحث على الاستقلال الاقتصادي، قال في هذا الصدد في خطبته سالفة الذكر: " أهملت تربية الأمة وبقى الكبراء منعكفين على إدارة شؤونهم الخاصة واستمر الآباء يلقون بالأبناء إلى مهاوى التوظف في الوظائف وبقيت التجارة والصناعة في كساد، ودامت الأمة في حاجة إلى استجلاب لوازمها الضرورية من غير بلادها، دام الانحطاط ودام التأخر ودام الخطر".

بعض كلماته الخالدة في الوطنية

للفقيد كلمات خالدة دلت على تأصل الوطنية في فؤاده، وسارت سير الحكم والأمثال، وقد مرّ بك بعضها في فصول الكتابة، وسنجمع هنا أهمها شأنا، وأدلها على شخصيته، مع بيان تاريخ كل كلمة منها:

- " أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا" سنة ١٨٩٥.
- " إن لي روحا هي نور الحرية الساطعة لا استطيع الحياة في ظلمات الظلم والاستبداد" من خطاب له إلى فريد بك سنة ١٨٩٦.
- "إني أترفع عن أأدافع عن بلاده بالطعن والسباب" سنة ١٨٩٦.
- "كل احتلال أجنبي هو عار على الوطن وبنيه" من خطبته بالإسكندرية يوم ٨ يونيه سنة ١٨٩٧.
- "في الرضا بالاحتلال الخيانة والعار، وفي العمل ضد الاحتلال الشرف والفخار" من خطبته المذكورة.
- " قد يكون الرجل الصادق الوطنية فقيرًا في المال، ولكنه يعيش ويبقى في التاريخ من أكبر سراة الوطنية" من خطبته بالقاهرة يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٨.
- " إذا لم نقتطف ثمرة عملنا وجهادنا في حياتنا، فإننا على الأقل نضع الحجر الأول لمن يأتي بعدنا" من رسالة له سنة ١٨٩٨ إلى أخيه على بك فهمي كامل.
- " لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة" من خطبته بالقاهرة يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٨.

- "الحياة جهاد، والعمر قصير، وخير الناس من جاهد في سبيل بلاده وعمل لخيرها وناضل عن حقوقها" من خطبته المذكورة.
- " ليست الحرية بعزيزة على قوم يعملون للحصول عليها ويجتهدون في نوالها، وليس بعزيز على المصريين أن يفكوا قيود بلادهم ويعيدوا إليها استقلالها ومجدها، فالصخرة الضخمة تذوب وتتفتت بسقوط المياه عليها نقطة بعد نقطة" من خطبته المذكورة.
- " الأمل دليل الحياة ورائد الحرية" (اللواء ٨ إبريل سنة ١٩٠٠).
- " إن قيام كل رجل حي الشعور شريف الميول بواجباته نحو هذه البلاد العزيزة يرد إليها حريتها ومجدها وعزها" (اللواء ٢٣ إبريل سنة ١٩٠٠).
- " سأستمر بمشيئة الله طول حياتي ولو بقيت وحيدًا أخطب في الصحراء وأكتب على صفحات الماء. ذلك الذي عرف المصريون الخادم الأمين للوطن العزيز" اللواء ١٣ أغسطس سنة ١٩٠٣).
- " الوطنية شعور ينمو في النفس، ويزداد لهيبه في القلب، ويرسخ في الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه" من خطبته سنة ١٩٠٤.
- " إن روحي تتغذى من حب الوطن وبغيره لا أستطيع الحياة إذ لا قيمة للحياة بغير هذا الحب الرائع العظيم الذي يفيض على المرء كل سلوى وكل سعادة حتى في شقائه، و بخاصة في الشقاء، حيث لا يجد الإنسان القوة والأمل إلا في هذا الحب" سنة ١٩٠٤.
- " ما دامت هذه الشعلة والوطنية تغذيني وتؤازرني فإني لا أهاب شيئًا ولا أحدا في الوجود" سنة ١٩٠٤.
- " من أشق الأعمال أن يجاهد المرء ضد الزمن والحوادث والناس، سنة ١٩٠٤.
- " سأبقى حتى الممات حاملاً لواء الاستقلال، إذ أجد حياتي في هذه العقيدة، وبغير هذه الشعلة الوطنية لا أستطيع الحياة" سنة ١٩٠٤.
- " لو انتقل فؤادي من الشمال إلى اليمين، أو تحولت الأهرام عن مكانها المكين، لما تغير لي مبدأ ولا تحول لي اعتقاد، بل تبقى الوطنية رائدي ونبراسي ويبقى الوطني كعبتي ومجده غاية آمالي" (اللواء ١٨ مايو سنة ١٩٠٦).

obeikandi.com

- " إن سلاسل الاستعباد هي سلاسل على كل حال، سواء كانت من ذهب أو من حديد" من كتابه إلى السير هنري هامل بانرمان سنة ١٩٠٧.

مختارات من خطبته بالإسكندرية سنة ١٩٠٧

- "إننا لا نعمل لأنفسنا بل نعمل لوطننا، وهو باق ونحن زائلون، وما قيمة السنين والأيام في حياة مصر وهي التي شهت مولد الأمم كلها وابتكرت المدينة والحضارة للنوع الإنساني كله؟ أن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصري ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة، وسيكون كذلك لا محالة، فمهما تعددت الليالي وتعاقبت الأيام، وأتى بعد الشروق شروق وأعقب الغروب غروب، فإننا لا نمل ولا نقف في الطريق ولا نقول أبدا: لقد طالب الانتظار".

- " إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى اشرف غاية اتجهت إليها الأمم في ماضي الأيام وحاضرها، وأعلى مطلب ترمي إليه في مستقبلها، فلا الدسائس تخيفنا، ولا التهديدات توقفنا في طريقنا، ولا الشتائم تؤثر علينا ولا الخيانات تزعجنا، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التي تصغر بجانبها كل غاية نعم لو أخذنا الموت من هذا الدار واحدا بعد واحد لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا: كونوا اسعد حظا منا، وليبارك الله فيكم ويجعل الفوز على أيديكم، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بل الآحاد للمطالبة بالحق الوطني والحرية الأهلية والاستقلال المقدس!".

- " بلادي بلادي! لك حبي وفؤادي. لك حياتي ووجودي، لك دمي ونفسين، لك عقلي ولساني لك لبي وجناني، فأنت أنت الحياة، ولا حياة إلا بك يا مصر!".

- " إني لو لم أولد مصريا لوددت أن أكون مصريا".

- " إن أمة دبت فيها روح الوطنية، وطمحت نفسها للاستقلال لا تمت أبدًا، وإن صواعق السياسة كلها لا تحول ضميرًا لاذ بالوطن عن وجهته".

- " نحن مسلوبون والإنجليز السالبون، ونحن طلال حق مقدس هم مغتصبوه، فلا سبيل إلا الاتفاق بيننا وبينهم إلا باعترافهم بحقنا ورده إلينا".

- " هل يستطيع مصري أن يتهور في حب مصر؟ مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التي يدعو إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها، ألا أيها اللائمون انظروها وتأملوها وطوفوها، وأقرأوا صحف ماضيها، و اسألوا الزائرين لها من أطراف

obeikandl.com

الأرض، هل حلق الله وطنًا أعلى مقاما، وأسمى شأنًا، وأجمل طبيعة، وأجل آثارًا، وأغنى تربة، وأصفى سماء،، وأعذب ماء، وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز؟ أسألوا العالم كل يجبكم بصوت واحد إن مصر جنة الدنيا، وإن شعبًا يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح في حقها وسلم أزمتها للأجنبي".

- "قد يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصري مما لا يليق بإنسان، ولكن أي شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء الأمة التي سبقت الأمم كافة في العلم والمدنية والأدب؟ أي رفعة يسعى الشريف إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذ الشعوب البشرية ومربى العالم كله؟".
- " إن مصر جديرة بأن تحب بكل قوة، بكل عاطفة، بكل جارحة، بكل نفس، بكل حياة".
- " لا قوام لأمة ولا سلامة لبلاد إلا بقوة العقيدة الوطنية".
- " إن من يتسامح في حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبدا الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان".
- "الدعوة للاستقلال، وبث الروح الوطنية، هما المؤديان إلى تحقيق آمال الأمة المصرية، فيكن معتقد المصريين جميعًا، أن نجاة مصر لا تكون إلا بهمم المصريين، وإن ارتقاءنا موكول إلى عزائمنا، فلنطلب النهوض من أنفسنا، ولنعمل له بالهمة والصدق والاتحاد".

obeikandl.com

عبقريته ومكانته السياسية

لم يكن مصطفى كامل زعيمًا وطنيًا فحسب، بل كان زعيما سياسيًا ناضج الفكر صادق النظر، واسع الاطلاع، ملمًا بأسرار السياسة الدولية، وهذه ميزة له على كثر من الزعماء الذين سبقوه (في الثورة العرابية)، أو تولوا الزعامة من بعده، ويضارعه في الاطلاع السياسي المغفور له محمد بك فريد، فكلاهما درس القضية المصرية دراسة عميقة قبل أن يضطلع بأعباء الزعامة، ولعلك تلحظ أنه حين عادة إلى صر عقب حصوله على شهادة الحقوق من فرنسا، جاء ومعه صندوق من الكتب المؤلفة في القضية المصرية، ليتزود منها بالحقائق والبيانات اللازمة لخدمة هذه القضية.

وظهر بعد نظره السياسي في المبدأ الذي اتخذه شعارًا لدعوته، وهو الجلاء، إذ رأى بثاقب نظره أنه الرمز الصحيح للاستقلال التام، وأن الاستقلال والاحتلال ضدان لا يجتمعان، قال في هذه الصدد: "كل احتلال أجنبي هو عار على الوطن وبنيه"، واطرّح المبادئ الملتوية والنظريات الخيالية جانبًا، وخالف الكثيرين من معاصريه الذين كانوا يرون مصانعة الاحتلال والتقرب إليها، وجعل الجلاء شعارا للحركة الوطنية، فهو أول من علم الأمة أنه صخرة النجاة لمصر، وأن الاحتلال الأجنبي هو مصدر العبث باستقلال مصر وكرامتها القومية، وقد أثبتت الحوادث قديمها وحديثها صحة هذا المبدأ القويم، لأن الاحتلال مهما كانت صفته لا يمكن أن يتفق مع الاستقلال والكرامة القومية [1].

ويبدو بعد نظره في تجنبه أخطاء زعماء الثورة العرابية، فقد أدرك من دراسته العميقة للمسألة المصرية أن اصطدام العرابيين والخديو توفيق كان من أسباب إخفاق الثورة، ومن العوامل التي تذرعت بها انجلترا لاحتلال البلاد، فكان يعمل دائمًا على إيجاد جوّ من التفاهم بين الأمة والخديو عباس الثاني، ويدعو إلى تعلق الأمة بالعرش، ولما وقع الخلف بينهما، بعد أن جنح الخديو للاستسلام والخضوع للاحتلال، اجتنب هو الاصطدام به، حتى لا يتخذ الاحتلال من هذا الاصطدام وسيلة لإضعاف الحركة الوطنية، أو محاربتها باسم الخديو.

وكذلك رأى من الحكمة السياسية توثيق الروابط الودية بين مصر وتركيا لكي يتخذ من موقف تركيا وسيلة لمقاومة الاحتلال وإقامة الحجة عليه، وأدرك من مطالعاته التاريخية أن انجلترا كانت تعمل دائمًا على تعكير العلاقات بين الخديو توفيق والسلطان، مما أدى إلى إطلاق

---

(١) قال مصطفى النحاس باشا في خطبته التي ألقاها يوم أول يوليه سنة ١٩٣٨: " إن جوهر المسألة المصرية هو الاحتلال والجلاء".

obeikandi.com

يدها في مصر، وأن جفاء العلاقات بين مصر وتركيا في عهد إسماعيل، كان من العوامل التي جنحت بتركيا إلى خلعه، إجابة لرغبة انجلترا وفرنسا، فعمل على اكتساب ود تركيا، مادام الاحتلال في مصر، لكي يضمن ألا تتفق الدولتان على إقرار الاحتلال، كما فعلت فرنسا في الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤، وقد فصلنا الكلام عن هذه المسألة في الفصل الثامن عشر.

أما سياسته بإزاء فرنسا، فقد كان إلى ما قبل حادثة فاشودة يتوقع تدخلها لصالح مصر، ولذلك كان يأمل العون من ناحيتها حتى سنة ١٨٩٨، وكل من كان في موقفه كان محقًا في هذا الأمل ولكن بعد أن وقعت حادثة فاشودة سنة ١٨٩٨ وتراجعت فرنسا أمام انجلترا، أدرك أن لا فائدة ترتجى منها، وجعل الاعتماد على قوة الأمة وجهادها أساس الحركة الوطنية، وأخذ يطعن على فرنسا وسياستها منذ تلك الحادثة، كتب في هذا الصدد يقول في لواء ١٥ مايو سنة ١٩٠٠: "إننا انتقدنا دائمًا السياسة الفرنسية وقلنا غر مرة إنها لا تليق بحكومة الجمهورية ولولا هذه السياسة العوجاء لما كانت انجلترا في مصر ولما كنا فيما نحن فيه".

ثم فقد أمله في عدالة فرنسا خاصة وأوروبا عامة منذ أن رأى جمود أوروبا أمام مأساة (البوير) وتركها إياهم يسحقون أمام القوات الإنجليزية دون أن تأبه بهم، قال في هذا الصدد في عدد ٢٨ أغسطس سنة ١٩٠٠ من اللواء: " إن المعتمد على أوروبا واقف على هاوية عميقة القرار، وإن الوطنية تحتاج إلى أسلحة عدة إذا كانت الشهامة والفضيلة والإقدام أهمها وألزمها، فالحذر والدهاء والتبصر ضرورية لها بل وحيوية لكل أمة تطلب الحياة أو تريد الزيادة في المجد والسؤدد، وإذا كانت أمة لغت من الشهامة وحب الوطن مبلغ أمة البوير وهذا حالها مع أوروبا فكيف بنا ونحن نحتاج لسنين عديدة وأعمال مجيدة لبلوغ مبلغها والحصول على مالها من المحامد والمزايا".

وكتب إلى مدام جولييت آدم في رسالة له بتاريخ ٢١ يونيه سنة ١٩٠٠ يقول:"إني لا أجد كلمات تسع إعرابي لك عن استيائي من أوروبا والمدنية الإنسانية التي قضت بهجر البوير البواسل! أي عار وأي درس لنا نحن الذين طالما كنا نعتمد على أوروبا".

فمصطفى كامل قد دعا الأمة منذ سنة ١٨٩٨ إلى الاعتماد على النفس في جهادها، ومن الخطأ ما يظنه بعض الكتاب أنه ظل يتعلق بالآمال من ناحية فرنسا حتى سنة ١٩٠٤، وهي السنة التي أبرم فيها الاتفاق الودي بين فرنسا وانجلترا، فإنه على العكس فقد أمله في فرنسا منذ حادثة فاشودة، ولم يفاجئه الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤، بل زاده قوة على قوته في الكفاح والجهاد.

على أنه مع فقدانه الأمل في تدخل فرنسا وأوروبا في المسألة المصرية، كان يؤمن بقوة الدعاية، وأثرها في إحراج مركز الاحتلال وشد أزر الحركة الوطنية فكان لا يفتأ يبذل الجهود الجبارة ليكسب لمصر الأنصار والأعوان في صحافة أوروبا وفي دوائرها السياسية والأدبية، وقد وفق من هذه الناحية توفيقًا عظيمًا يدل على حظ كبير من المكانة الشخصية والمقدرة السياسية، فليس من السهل على أي إنسان مهما كان كبيرًا أن يدرك تلك المكانة التي جعلت الفقيد ينشر مقالاته وأحاديثه في أهم الصحف الأوروبية.

لقد كانت كبرى الصحف الفرنسية كالفيجارو والإكلير والطان والديبا وغيرها ترحب بمقالاته وأحاديثه، وكان ينشر بعضها أيضًا في الصحف الإنجليزية وكان في صيف كل عام يقصد إلى أوروبا وتنشر له كبريات الصحف الأحاديث والمقالات عن مصر وشئونها، وتخصص لها مكانا بارزا في أعمدتها، وتتناقلها الصحف الأخرى، وكان لا يحل ببلد إلا وتتجه إليه الأنظار ليدلي إلى الجمهور بآرائه عن الحركة الوطنية المصرية التي كان زعيمها وممثلها في الداخل والخارج بلا منازع.

ومن دلائل مكانته السياسية أنه لما وقعت حادثة دنشواي استطاع أن ينشر مقالته الشهيرة (إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن) في صدر جريدة (الفيجارو)، فكانت بمثابة صحيفة اتهام للسياسة الإنجليزية في جريدة من أكبر الصحف العالمية، وفي وقت كانت السياسة الفرنسية متجهة وجهة الاتفاق الودي مع انجلترا، وهذا يدلك على عظم المنزلة التي نالها الفقيد في العالم السياسي.

ولما نشرت له (الفيجارو) في سبتمبر سنة ١٩٠٧ كتابه المفتوح إلى السير هنري كامبل بانرمان رئيس الوزراء البريطانية الذي احتج فيه على الاحتلال وطالب الحكومة البريطانية بتحقيق وعودها في الجلاء، تناقلته جرائد الطان والديبا والإكلية والإيكودي باريس والجولوا وغيرها، وعلقت عليه تعليقات تدل على عظم مكانته وأنشأت الطان في صدده مقالة افتتاحية قائلة عن العلاقات الأدبية والمادية بين مصر وفرنسا تعادل ما عند فرنسا من الميل والانعطاف نحو المريين وتردد صدى الكتاب في معظم الصحف البريطانية كالتيمس والستاندراد والديل نيوز والمورننج بوست والمورننج ليدر وغيرها ونشرته ضمن رسائلها التلغرافية الواردة من مكاتبها بباريس، كما رددت صداه شركة روتر في أرجاء العالم.

وعندما استقال الأستاذ إدوار لامبير من منصب ناظر مدرة الحقوق الخديوية (ص ٢٥٢) التقى بالفقيد بفرنسا، وهو الذي قدمه إلى المسيو تارديو مدير جريدة الطان (والذي صار رئيس وزراء فرنسا فيما بعد) لينشر له مقالته عن أسباب استقالته، وقد نشرت بها فعلا ونشرها الفقيد بأكلمها في الايتندار اجبسيان وذي اجبشيان ستاندرد، ونشر تعريبها كاملا في اللواء في اليوم

التالي لظهورها في الطان وقد ذكر العلامة لامبير هذه الحقيقة في حديث له بجريدة الجهاد عدد ٨ مارس سمو سنة ١٩٣٧ حين حصر إلى مصر لإلقاء محاضراته القانونية تلبية لطلب كلية الحقوق المصرية.

وقبلت جريدة الفيجارو الشهيرة أن تنشر ليتندار اجبسيان كل المقالات التي يكتبها الكاتب الطائر الصيت (بييرلوتي) عن مصر في يوم واحد معًا، على حين كانت تنقده المبالغ الطائلة على ذلك.

ولما أوفد الفقيد إلى باريس سيد أفندي على أحد محرري اللواء في بعثة صحفية ليتلقى علوم الصحافة في مدرسة العلوم السياسية بها، رزّده بكتب توصية إلى أقطاب السياسة والصحافة في فرنسا، فكان كلما قابل أحدهم وسلمه كتاب التوصيلة قابله بعناية واحترام، لاحترامهم شخصية الفقيد، وقصد إلى إدارة جريدة (الطان)، وهي كبرى صحف فرنسا ومعه خطابان أحدهما لرئيس تحريرها والآخر لمحررها الأول، فلما أخبرهما أنه رسول مصطفى كامل قابلاه بالحفاوة البالغة، وأخذ رئيس التحرير يقدمه إلى زملائه مبتسما: قائلاً: "هذا مندوب صديقنا الجليل مصطفى كامل". ولما تلا كتابه أقبل عليه وقال: " إني أحب الباشا من أعماق قلبي، وأود أن أقوم له بخدمة ولو صغيرة، فاعلم أن أبواب الطان مفتحة أمامك في كل وقت وساعة، وأن أبواب غرفتي لا تقف في وجهك أبدا، وقد كلفني رئيسك أن ألحقك بمدرستي العلوم السياسية والصحافة، ومن رأي أن تقتصر على الأول، لأنك لا تستفيد من الثانية شيئًا، فإذا أتممت العلوم السياسية فعد إلى مصر وتعلم الصحافة في مدرستها الكبرى التي يديرها مصطفى كامل باشا"، فهذه المنزلة التي نالها الفقيد لدى أقطاب السياسة و الصحافة في فرنسا لا يمكن أن ينالها إلا الرجل العظيم إلي رفعته كفايته الممتازة وشخصيته الفذة إلى ذلك المستوى الكبير، ولا غرو وفقد كل معروفا في أوروبا بأنه بطل الاستقلال المصري، ويدلك على سمو مكانته في نفوس عظماء الغرب أن الكاتب الفرنسي الشهير بيير لوتي، وكان صديقًا حميما له وضع كتابًا سنة ١٩٠٩ عن مشاهداته في مصر، وقدم له بكلمة إهداء إلى روح الفقيد قال فيها: "إلى ذكرى صديقي المجيد العزيز مصطفى كامل باشا الذي استشهد يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ في ميدان الجهاد الشريف عاملاً على رفعة شأن مصر والإسلام"، وهي كلمة لا تصدر إلا عن تقدير عظيم، من أجيب كبير.

سياسة نحو النزلاء

وكان شديد الحرص على اكتساب ثقة النزلاء الأجانب واطمئنانهم إلى الحركة الوطنية، وفي ذلك قال كلمته المشهورة (أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا)، وقد وفق توفيقًا كبيرًا في كسب ثقة الأجانب واحترامهم، مما كان يبدو أثره في الصحف الأوروبية المحلية، ولا شك في أن ظهور زعيم وطني شاب مثقف ثقافة أوروبية قد أفاد كثيرًا في الدعاية للحركة الوطنية سواء في أوروبا أو في الأوساط الأوروبية المحلية، ولذلك كان له أنصار وأصدقاء ومعجبون كثيرون من أعيان الجاليات الأوروبية، ومن أقطاب الصحافة والسياسة والقضاء والمحاماة، وقد كان أول زعيم مصري سمعت منه أوروبا صوت مصر الحديثة، وكان له من الصحفيين الأجانب في مصر أصدقاء شخصيون عديدون، كالمسيو هيكاليس باشا صاحب جريدة. الفارد الكسندري، والمسيو برشيه صاحب الجورنال اجبسيان. والمسيو راوول كانيفيه مدير جريدة الريفورم، والمسو جورج فيسييه مدير الجورنال دي كير وغيرهم.

سياسته الشرقية والإسلامية

كان مصطفى كامل عَلَما على الوطنية المصرية، وكان في الوقت نفسه رسول الحرية والجهاد للأمم الشرقية، شديد الغيرة على توثيق عرى الروابط والتعاون بينها، وكان قوي العقيدة الدينية، قوي الإيمان، ولقد كانت قوة إيمانه من أسباب رسوخ العقيدة الوطنية في فؤاده، وقال في هذا الصدد ردًا على حملات الصحف الأوروبية على الإسلام لمناسبة مقالات هانوتو: "قد يظن بعض الناس أن الدين والوطنية توأمان متلازمان، وأن الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبًا صادقًا ويفديه بروحه وما تملك يداه" (راجع ص ١٥٦).

ويبدو اتجاه إلى تقوية الروابط بين الشعوب الإسلامية من إصداره جريدة أسبوعية باسم (العالم الإسلامي) كان ينشر يبها كل ما يهم الإسلام من المقالات والأنباء.

وكتب في جريدة (الطان) الفرنسية – عدد ٨ سبتمبر سنة ١٩٠٦ – مقاله ردا على مقالة نشرتها عن الجامعة الإسلامية قال:

"لقد فسرت كلمة الجامعة الإسلامية في أوروبا تفسيرًا لا يتفق ومعناها الحقيقي، وإني أعيد، هنا ما كتبته في "الفيجارو" و"اللواء" وما قلته في كل مكان من أنه لا يوجد مسلم متنور يعتقد لحظة واحدة أن الشعوب الإسلامية يمكنها أن تؤلف عصبة ضد أوروبا. وإني أتساءل من الرجل العاقل السليم الإدراك الذي يصدق إمكان تغلب الشعوب الإسلامية على كافة الدول الأوروبية، إن الحقيقة الساطعة الخالصة من كل شيء هي أن حركة الجامعة الإسلامية بالمعنى

obeikandi.com

المقصود منها في أوروبا – أي الحرب الدينية– لا وجود لها بالمرة، لأن المسلمين أدركوا من زمان بعيد أنه يستحيل على أية أمة أن تعيش في معزل عن العالم، وأن الأمة التي تحاول ذلك تقضي على نفسها بالموت، أما الشعور الموجود حقيقة وبلا نزاع عند كافة الشعوب الإسلامية فهو شعور انعطافها وحنانها لبعضها البعض، فكل مسلم يرغب من صميم فؤاده أن يرى أبناء دينه معاملين أحسن من المعاملة الحالية ومعتبرين كجزء حي من الإنسانية ومحترمين في كل مكان ومن كل إنسان، وأنه لما كان لتأخر الشعوب الإسلامية أسباب واحدة، فإن نهضتهم تكون بوسائل واحدة، وإن هذه النهضة لا تصير حقيقة تشاهد بالعيان بفضل أوهام تأليف عصبة إسلامية ضد المسيحية، بل بالتعليم والنور، وبما أن الإسلام ليس عقيدة دينية فقط بل قانون اجتماعي، فإن إحياء الأفكار ونشر المعارف لا يتمان إلا بإظهاره على حقيقته، وإن ميل كل مسلم لأبناء دينه أمر طبيعي وشرعي، ولا يوجد رجل منصف ينتقد ذلك الميل، أما عن تهمة التعصب الإسلامي المزعوم في مصر فإني أؤكد أن بلادا كثرة في أوروبا تعرف التعصب العنيف الممقوت، في حين أن مصر لا تعرفه، فليس ندنا أحزاب ضد اليهود، ولا اشتراكيون ولا فوضويون، ولا شيء من تلك الفرق التي يأكل بعضها بعضًا".

مقدرته الخطابية

هو أعظم خطيب أنجبته مصر الحديثة، وأول خطيب سياسي جهر بالاستقلال في عهد الاحتلال، وأول زعيم اتخذ الخطابة وسيلة لبعث الحركة الوطنية، ولا شك أن الحركة الوطنية مدينة لخطبه الجليلة الرائعة في ظهورها واتساع مداها، وكانت هذه الخطب من الحوادث الهامة في تاريخ الحركة القومية، كان خطيبًا مفوها يجيد الخطابة باللغتين العربية والفرنسية، والخطابة بعد الوطنية كانت أبرز الجوانب في شخصيته، كان إذا جلس في محفل خاص وتكلم مع الحاضرين يدوّي صوته كأنه يلقي على السامعين خطبة من خطبه الرنانة، كان جهوري الصوت، يتكلم من أعماق قلبه المملوء يقينا وإيمانًا، وكان له سلطان روحي على من حوله من السامعين أو المخاطبين، وقد بدأت مواهبه الخطابية في الظهور وهو بعد في المدرسة الثانوية، إذ كان يخطب في جمعية الصليبة الأدبية وجمعية الاعتدال بمدرسة الأمريكان (ص ٣٧) بخطيب مصر المصقع، وأنه الذي إذا ارتقى منبر الخطابة ذلل له القول وسخر له الخطاب، وتابعه الكلام متفق القرائن مطرد السياق.

وقد كان في مواقفه الخطابية الكبرى يضع خطبه ويكتبها، ولكنه كان يلقيها على السامعين دون أن يقرأها، وكان له من قوة ذاكرته المدهشة ما تغنيه عن الرجوع إلى التلاوة في خطبه، وكانت مقدرته الخطابية باللغة الفرنسية لا تقل عنها في خطبه العربية، ولذلك نال إعجاب

الأوروبيين ممن سمعوه يخطب بالفرنسية، وكان هذا الإعجاب من أسباب علو منزلته السياسية والاجتماعية في أوروبا وبين النزلاء الأوربيين في مصر.

مقدرته الصحفية

هو من عباقرة الصحافة في مصر والعالم، خلق صحفيا بفطرته، فأسس مجلة المدرسة وهو بعد في المدرسة الثانوية، فكان أول طالب مصري مارس الصحافة، كما أنه كان أول طالب خطب في الوطنية، وقد ولع بمراسلة الصحف في هذه السن المبكرة، وكتب في كبريات الصحف، من مصرية أوروبية قبل أن ينشئ اللواء ولما أنشأ سنة ١٩٠٠ بعث في الصحافة روح التجديد والنشاط، فكان اللواء نموذجا للفني الصحفي، متنوع المقالات والأبحاث والأنباء، وكان أول ما صدر في أربع صفحات ثم ما زال يرقى به حتى جعله في ثمان بعد إن استحضر لها من أوروبا آل الطباعة الكبرى (روتاتيف). وكان يفيض بالأنباء البرقية الواردة إليه من الخارج على يد مراسليه، فضلا عما كان ينشر من رسائل كبار الكتاب في مصر وأوروبا، وصار كما قالت (الأجبشيان جازيت) "أكثر الجرائد العربية انتشارًا ليس في مصر فقط بل في جميع العالم على الأرجح" ولم يكتف بإصدار اللواء اليومي، بل أصدر إلى جانبه (مجلة اللواء) الشهرية ثم جريدة العالم الإسلامي سنة ١٩٠٥.

وبلغت مقدرته الصحفية أوجها حين أصدر جريدتي ليتندارا جبسيان وذي اجبشيان ستاندرد اليوميتينِ، فصار يصدر ثلاث صحف يومية كبرى، بثلاث لغات مختلفة، وهي مهمة تنوء بها العصبة أولو القوة من الرجال والجماعات، وقد كان يشرف بنفسه على تحريرها وإدارتها، وتتمشى روحه في كل كلمة منها، بحيث لم يؤخذ على أية صحيفة منها أنها نشرت يوما مقالة أو نبذة تخالف روحه ومذهبه.

وكان للايتندار اجبسيان وذي اجبشيان ستاندرد محررون اختارهم الفقيد من صفوة الكتاب الفرنسيين والإنجليز، ومراسلون في باريس ولندن يرسلون إليهما تلغرافيًا خلاصة كل ما ينشر في الصحف الأوروبية عن مصر في حينه. فكانت الأولوية تطالع قراءها يوميا بكل ما يهم مصر في الخارج.

ولما نشرت (الديلي تلغراف) حديثًا للخديو عباس (ص ٣٤٩) في مايو سنة ١٩٠٧، عقب استقالة اللورد كرومر، علم به الفقيد تلغرافيا من مراسل ذي اجبشيان ستندرد في لندن، فطلب إليه أن يوافيه بنصه حرفيًا، فجاء نصه بالتلغراف في ١٤٤٥ كلمة، وكانت هذا أول مرة في تاريخ الصحافة المصرية والشرقية جاء فيها تلغراف بهذا الطول وهذه الأهمية.

obeikandl.com

وقد بلغ من تعلق الفقيد بترقية الصحافة ورفع شأنها أن أوفد بعثة صحفية إلى أوروبا في أكتوبر سنة ١٩٠٧ لدراسة فن الصحافة وإتقانه، وبدأ بإرسال سيد أفندي على أحد محرري اللواء وقتئذ إلى باريس. و انتظم على نفقة صاحب اللواء في سلك مدرستي العلوم السياسية والصحافة بباريس لمدة ثلاث سنوات، ولكن لم يطل مكثه هناك لمرض اعتراه، وقد عرض علىّ الفقيد في تلك السنة وكنت إذ ذاك طالبًا بمدرسة الحقوق، أن يوفدني في هذه البعثة الصحفية بعد حصولي على شهادة الحقوق، فقبلت هذه الثقة شاكرًا، ولكن المنية عاجلته قبل تخرجي من المدرسة.

كان مصطفى كامل يتولى عمله الصحفي المنهك، إلى جانب إشرافه إلى إدارة مدرسة مصطفى كامل، إلى جانب خطبه الرنانة التي كان يلقيها من آن لآخر، وأحاديثه ومقالاته في كبريات الصحف الأوربية، وإطلاعه على الصحف والمؤلفات التي تكتب عن مصر وعن المسائل السياسية الكبرى العالمية، وإلى جانب ذلك يجتمع بأصدقائه وأنصاره وتلاميذه،، ويفيض عليهم من أحاديثه وتعاليمه ما يملأ نفوسهم وطنية وإيمانًا، وكان إذ خلال إلى راحته يكتب الرسائل الخاصة إلى كبار السياسيين والكتاب في أوروبا، مما لو جمع لصار عدة مجلدات، وقد جمع شقيقه على بك فهيم كامل رسائله إلى مدام آدم، فجاءت كتابا قيمًا ممتعًا، كان الفقيد يضطلع بهذه الأعباء كلها مجمعة بهمة وكفاية ومقدرة منطقة النظير.

فضله على الحركة الوطنية

هو رسول الوطنية والحرية لمصر والشرق جميعًا، وإن قيامه ضد أكبر دول الاستعمار وهي في أوج قوتها لهو مثال خالد للبطولة والإخلاص والتضحية، جدير بأن تحتذيه الأمم الشرقية في جهادها للحرية والمجد، وقد بينا كيف أنه كن باعث الحركة الوطنية الحديثة وموجدها، فلا نعود إلى هذا البيان، ولقد ظهرت هذه الحقيقة رائعة يوم الاحتفال بجنازته، إذ كانت إجماعا من الأمة على الاعتراف بأن الحركة الوطنية هي غرس جهاده المتواصل طوال سني حياته، وسندعم هذه الحقيقة هنا بأقوال معاصريه في مصر وفي الشرق والغرب، فإن هذه الأقوال تستطع منها شخصية الفقيد العظيم.

قال المغفور له الشيخ علي يوسف صاحب "المؤيد" في رثائه:

" كان في عمله كقائد الجيش يسير به إلى ميدان القتال، للحياة الفاخرة، أو للدار الآخرة، ذلك كان مبدأ صديق القديم، وهذا شأن رصيفي العظيم، فكان من مبدئه يافعًا، إلى أن صار في الرابعة والثلاثين رجلاً كاملاً، مثال الهمة الشماء والذكاء والعزيمة ذات المضاء، والحركة الدائمة التي لا تني ولا تنثني، ذاهبًا في طريق الآمال ينشد لوطنه الاستقلال، فإليك أيها الصديق

القديم، والرصيف العظيم، تحية محزون يعرف لك أكثر من كل إنسان خدمتك العظيمة التي خدمت بها وطنك فأيقظت من شعور المصريين ما قامت مظاهرات الأمس أكبر برهان على مقدار ما كان لك فيه من حسن الأثر ويد بيضاء، وبقدر جهادك العظيم في أوروبا في سبيل الدفاع عن حقوق الأمة المصرية حق قدره، وإني لمصر أن تجد بعدك صوتًا عاليًا إذا قال اسمع أوروبا بأسرها وتردد صداه في الخافقين، بل أني لمصر بمن يملك إحساس شبيبتها كما كنت تملك، ويستفز شعورها كما كنت تستفز والأمة في حاجة كبرى إلى تنمية مثل هذه العواطف الشريفة".

وقال المرحوم مرقص حنا باش (عضو الوفد المصري) في حفلة تأبينه:" إن العظمة والمهابة التي أحاطت بنعش المرحوم مصطفى كامل باشا بوم ١١ فبراير المنصرم ذات دلالة صادقة أكيدة على أنه لم يكن صديقًا لفريق المصريين، بل كن صديقًا لجميع الوطنيين على السواء، بكاه كل ساكن من سكان هذه البلد لأنه قضى حياتها كلها في بث روح الوطنية الحقيقية بين أهله وقاطنيه، بكيته أنا شخصيًا لأني عرفته مثالا للرجولة والشهامة والصداقة بكل معاني الكلمة، وكان الرجل شفاء لغلتنا، وإرواء لظمئنا، جئت أقول لكم كلمة واحدة هي حياة مصطفى كامل كلها، إن الأمة نمت وسمت وتغارست أغصانها حول جذع واحد هو مصر، هو الوطن العزيز، تلك الحقيقة التي لا ريب فيها، الفخر في إحيائها راجع إلى مصطفى كامل باشا".

وقال الشيخ مصطفى القاياتي في مارس سنة ١٩٠٨: "هذه الحياة القومية المدهشة والنهضة المصرية الفائقة إنما هما اثر من آثاره، ونتيجة من نتائج أعماله سيتوارثها الأبناء عن الآباء، وتبقى ما بقيت صفحات التاريخ".

وقال سعد باشا زغلول في خطبته بفندق شبرد يوم ٢٠ إبريل سنة ١٩٢١: " أعلم أن البلاد تصبو إلى الاستقلال وأن حركتها الاستقلالية بدت من زمان طويل، خصوصًا من يوم أن ظهر فيها المرحوم مصطفى كامل وتلاه المرحوم فريد بك هؤلاء الذين أسسوا وأيدوا ما أسسوا في النهضة الحاضرة".

وقال في خطبته بالسرادق يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣: " لست خالف هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم، لا أقول ذلك ولا أدعيه، بل لا أتصوره، إنما نهضتكم قديمة تبتدئ من عهد مؤسس الأسرة المالكة محمد علي، وللحركة العرابية فضل عظيم فيها، وكذلك للسيد جمال الدين الأفغاني وأتباعه وتلاميذه أثر كبير وللمرحوم مصطفى كامل باشا فضل غزير فيها أيضًا، وكذلك للمرحوم فريد بك".

وقال الأستاذ أحمد لطفي السيد عن مصطفى [1]:

" لا أريد أن أطيل القول في مصطفى كامل، فحياته معروفة مشهورة، ولكني أقول موجزًا:

" إن مصطفى كامل كان شعاره الوطنية، ووسيلته الوطنية، وغرضه الوطنية، وكلماته الوطنية، وكتابته الوطنية، وحياته الوطنية، حتى لبسها ولبسته، فصار بينهما التلازم الذهني والعفي، فإذا ذكرت مصطفى كامل بخير فإنما تطرى الوطنية، وإذا قلت الوطنية فإن أول ما يتمثل في خالك شخص مصطفى كامل، كأنما هو والوطنية شيء واحد.

" وقد تمثل ذلك يوم وفاته في هذه المظاهرة التي لم تعرف لها في ذلك الزمان مثيلا، فقد أشترك جميع أفراد الأمة في أمر واحد، على رأي واحد، بصورة واحدة مع اختلافهم فيما عداه.

"كل هذا دل على أن الشعور الذي قادهم ليس مذهبًا سياسيًا، ولا طريقة من طرائق المنازعة السياسية، بل هو أعلى من ذلك، هو التضامن القومي، والجامعة الوطنية.

"إن مصطفى كامل كان تمثال الوطنية، ولقد عوتُ في اليوم التالي لوفاته على صفحات الجريدة إلى إقامة تمثال له يشهد بالاعتداد بفضله في عمله، وتخليدًا لذكراه، واعترافا من الأمة لكل عامل يقف نفسه على خدمتها، وتجسد لهذه الروح الطاهرة.

"وقد شاعت هذه الفكرة بين جميع الطبقات، وفتحنا الاكتتاب على صفحات "الجريدة" وتكفلنا بالقيام بهذا العمل، ولو أننا لمن نكن من حزبه السياسي، لأن مصطفى كان مصريا لجميع المصريين".

وقال الأستاذ أخنوخ فانوس من خطبته في حفلة تأبين مصطفى كامل:

"إنه أنهض روحا شريفة عامة بين طبقات وعناصر الأمة المصرية، روحا وطنية شريفة، بل زهرة زاهرة عابقة نمت وعلت فوق هامة الإشراك المذهبية بناموس الرقي، فما مات مصطفى حتى أطلقت عبيره بين الملأ، فأنعشت كامل الحب القومي الوطني الطبيعي، وكشفت في مصر عن حلقة وطنية صحيحة شريفة.

وقالت "الأهرام" في رثائه – بقلم الأستاذ داود بركات:

" ذهب "فتى مصر"، فكل قلم "مصري" ككل لسان مصري، وقف اليوم على تأبينه ورثائه، ومات مصطفى كامل، فالأمة التي كانت أقواله وسياسته وأفكاره شغلها الشاغل، هي الآن رهن الفجيعة به، والمصاب بفقده، بل إن أقلام خصومه الحادة التي كانت تتناوله كل حين بالغمر،

---

(١) من كتاب (قصة حياتي) للأستاذ أحمد لطفي السيد – كتاب الهلال– فبراير سنة ١٩٦٢.

obeikandl.com

وكل آونة بالتجريح واللمز هي اليوم أمام نعشه خاشعة تقطر بالرثاء، بعد أن اتأدت، والداء يفت من جسمه، لا تقلق مضجعه ولا تشوك سريره، بل هي اليوم مثلها بالأمس، تعرف أنها كانت تنازل في منازلته فكرًا يؤلف به الأفكار، لا شخصا في عقر الدار، ومذهبا في السياسة هو صدى آمال أمة عظيمة، لا مذهبًا في العمل ينحصر في دائرة ضيقة. فلو لم يكن في مصر قوة ما جردت عليه قوات، إن الطريقة التي كانت عنوان مصطفى كامل هي الحرية في القول، والمجاهرة بما يضمر، والتذرع بالشجاعة في العلم، لأنه لا يميت الحقوق في الأمم مثل الجبن عن المطالبة بها، أو التطوح إلى ما وراء الغاية من الشجاعة، فحسبه مجدًا أن يسجل له في تاريخ أمته تلك الشجاعة وتلك الحرية، بل حسبه أن يكون مثالا للناشئة، فهو أكبر معلم بما عمل".

وقال مدام جولييت آدم في مقدمة كتاب رسائل الفقيد إليها:

" إن في نشر رسائل صديقي وابني مصطفى إحياء له بعض الشيء، على أن مواطنيه لذكره لحافظون، هل مات "مصطفى"؟ كلا، لأن أعماله وكتاباته وأقواله حية في أعماق قلوب أنصاره ومحبيه، وهو يحيا في تلك الشبيبة المصرية التي أخرجها من الظلمات إلى النور، ووقف نفسه على مستقبلها جسما وروحًا، لقد صار من رجال التاريخ، وهو حي في شخص الكل، والكل حي في شخصه، وما يجئ من الحوادث لن يغير شيئًا من صورته وعنوان مجده، وإن الفخر في تحقيق آماله حين تتحقق يعود عليه ويرجع إليه كله، لأنه لا شيء ينقص من فضل أول باعث لفكرة استقلال مصر، لقد قامت عند وفاة "مصطفى كامل" مظاهرات لم يصدر من أمة أخرى أعظم منها، وقد صار عمله كاله حيا في قلب كل مصري، لأن كل مصري يفهم أن "مصطفى كامل" قد أحيا مصر، إذ نفخ فيها من روحه، وعندما كان يقول متباهيا بلسان المغرم: أمتى! لم يكن يقولها بلسان الملك عن رعاياه، بل كان يحي في نفسه بلاده ووطنه، وكان يحي معهما، لأنه كان يحب أمته حبًا لا يقوى عليه الموت!

"وإن ما اخترته من رسائله لدال على أنه جدير حقا بلقب "الوطني" الذي أسبغته عليه أمته في كل شيء: الخطيب الوطني، ورئيس الحزب الوطني، ومثل هذا اللقب أعظم فخر يطمع فيه خادم الوطن، لقد كان "مصطفى كامل" يقول إن هذا اللقب يحيني بحياة بلادي كلها وهو جزائي الأعظم، واليوم يبعثه هذا اللقب حيًا في نفس كل وطني مصري".

وقالت جريدة (الديبا) الفرنسية الشهيرة في إبريل سنة ١٩٠٨:

"إن مصطفى كامل لم يوقظ أمته فقط وإنما رباها أيضًا، بل يمكن القول بأنه هو الذي أنشأ الروح المصرية من العدم، لم تكن مصر قبله إلا قسما من الأقسام الجغرافية، ولم يكن

سكانها إلا فرقا منقسمين بعوامل الجنس والدين، متفرقين شيعا على قدر ما في مصر من الأديان وما كان فيها من اختلاف المذاهب والمشارب والمطامع، لقد تولى محمد علي شئون مصر، فبعد بذله الجهد الجهيد نصف قرن من الزمن تمكن من إنشاء جنسية مصرية ممتازة عن الجنسية العثمانية، ولكنه لم ينشئ أمة مصرية، أما مصطفى كامل فقد خرج من بين هذه الجموع المتنافرة المتخاذلة التي لم تعرف معنى للتضامن القومي ولم تتذوق نعمة الوحدة الوطنية، وكان أول من نطق بنداء الوطن، نطق بهذا النداء ولم يكن قد تجاوز عشرين عاما، ثم ما زال يبث هذه الفكرة السامية والروح الشريفة مدة أربعة عشر عاما متتالية، تارة بالصحافة وطورًا بالخطابة، وأخرى بالمدرسة، ظل يبث هذه الفكرة بجهد عظيم أضعف صحته وقرب منيته، لقد أنشأ مصطفى كامل الوطن المصري. فهو بذلك قد أتم أشرف عمل أدبي يخلد له الذكر الحسن على مر الأجيال، وأضاف إلى هذا العمل الأدبي عملاً سياسيًا، وهو السعي في تحرير مصر من رق الاحتلال الإنجليزي وجعلها أهلا لهذا التحرير، فعمل مصطفى كامل كان إذن أدبيًا وسياسيًا معًا".

ووصفه الكاتب الفرنسي (لويس برتران) في مجلة العالمين، وكان قد زاره وهو في أوج مجده، قال:

"قصدت شيخ الوطنيين مصطفى كامل باشا وزرته في داره، وقد كانت مدام جولييت آدم أعطتني كتاب توصية إليه، فاستقبلني رئيس الحركة الوطنية ومدير سياسة جريدة اللواء في غرفته بإدارة الجريدة، فأحسن وفادتي وأكرمني، دخلت غرفة الرئيس فعرتني دهشة، لأني وإن كنت لا أنتظر أن ألاقي شيخًا عربيًا ذا لحية بيضاء، ولكن كنت أحسب أني ملاق جلاً كبير السن قوي الجسم ساكنًا كما هو المعهود في الطبقة العالية من المسلمين، نعم عرتني دهشة لأني وجدت فتى شديد العارضة عظيم النشاط، لا يدل ظاهره على أن عمره يتجاوز الخامسة والعشرين، مع أنه في الحقيقة قد بلغ الثانية والثلاثين، رأيت رجلاً صغير الجسم، شاحب اللون خفيف اللحم، تدل ملامحه على أنه رجل رقيق عصبي المزاج، لكنه مع هذا الجسم الضئيل كان جهوري الصوت خطيبًا فطريًا، فكلمني عن شيء من تاريخ حياته، ومن عجيب ما لاحظته أنه بالرغم من حبه وبغضه كان يحكم على الناس بفراسة عجيبة من غير أن تخدعه صلة النسب أو رفعة الرتب، ثم إنه فوق ذلك خبير بدخائل السياسة الأوروبية كل الخبرة، وبالرغم عن أني كنت وإياه وحدنا في غرفة، فإنه كان يخاطبني وكأنما هو يخطب في جمع عظيم، ومن مزاياه العجيبة أن له تأثيرًا في النفوس يضطرها إلى الإقناع بما يقول حتى إني لم اتركه إلا وقد انقسم فؤادي بين الميل الغريزي إليه، وما سمعته من قبل من خصومه، على أني كنت شديد الرغبة في مقابلته مرة ثانية، قابلته مرارًا وتحادثت معه كثيرًا، فعرفت فيه السياسي الحكيم الذي يعرف كيف يستخدم

obeikandl.com

الظروف والفرص، وكيف يلين وكيف يقسو، وكان من رأيه ألا يعتمد على أوروبا إلا قليلا، وإن الثورة الحربية جنون، وكل عمله ينحصر في تقوية روح الوطنية والاتحاد بين مواطنيه، والمقاومة السليمة، وكان يحتقر مدنية لا غاية لها إلا الري المادي دون عناية بتحرير النفس أدبيًا، فما كان أجمل جهاد ذلك الشاب المخلص الذي نصب نفسه لمحاربة خصم قوي عنيد مع أنه لا سلاح له إلا قلبه ولسان!".

فضله على الوحدة الوطنية

إن الفقيد هو أول من أسس الوحدة الوطنية وجعل لواء الوطنية يضم المسلمين و الأقباط على السواء، كثيرون من الكتاب ينسبون هذا الفضل إلى سعد زغلول، وهذا خطأ تاريخي وإجحاف لا مسوغ له، والحقيقة أن مصطفى كامل هو صاحب الفضل في تأسيس هذه الوحدة، اعتبر ذلك في اصطفائه الأستاذ ويصا واصف ومرقص حنا باشا، وهما من خيرة الوطنيين الأقباط وضمهما إلى الحركة الوطنية، فكانا من أكبر أنصاره وأعوانه في الجهاد، وقد كان في خطبه ومقالاته يدعو إلى ارتباط المسلمين والأقباط في الجهاد الوطني.

قال في خطبته بالإسكندرية يوم ٨ يونيه سنة ١٨٩٧: " إن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش، ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد" (ص ١١٠).

وقال في خطبته بالإسكندرية يوم ٢ يونيه سنة ١٩٠٠: "كيف يستطيع رجل وطني أن يدعو للشقاق والبغضاء وهذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة، فالأقباط إخوة لنا في الوطن تجمعنا اشرف رابطة، وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق وأكمل اتفاق" (ص ١٥٧).

وتبدو هذه الروح الوطنية في كل أقواله وأعماله.

وليس أبلغ في الدلالة على أنه الموجد للوحدة الوطنية من شهادة المرحوم مرقص حنا باشا في حفلة تأبينه يوم ٢٠ مارس ١٩٠٨، إذ قال عنه:

"ليس الأبطال قائدي الجيوش والقابضين على دفة الأساطيل، إنما البطال هم أولئك المتمسكون بالمبدأ القويم وأهدابه، الدائبون على السير في سبيله، حتى رفعوا قومهم إلى أوج الرقي والعلا، سار الفقيد في سبيله هذا ثابت الجأش، شديد المراس، لا يلوي على أحد ولا يقف به أمر، حتى فاز كما نوى، وأراد فكونّ الوحدة الوطنية، وأرانا طريق الإخاء والحرية، وهدانا إلى السعادة الحقيقية رسم لنا طريق الوفاق والتآلف، طريق الحرية والاستقلال، وهدانا الجمهور العظيم الذي ناره اليوم التف حول قبره وقد ضم بينه جميع العناصر المصرية يقول لكم بأفصح

obeikandi.com

لسان وأجلى بيان وأقوى حجة وأعظم بلاغة: "إن التآلف بيننا أصبح قاعدة ثابت"، أن الشبيبة المصرية لا تعرف غير أنها الشبيبة المصرية، وألا واجب عليه سوى خدمة مصر والمصريين بلا تخصيص ولا تقسيم، هذا بناء مصطفى كامل، هذا عمل مصطفى كامل، وقد بدا لنا جني ثمره من الآن، لأن الاتحاد هو السلم الأول للوصول إلى الحرية والاستقلال".

تضحياته

سيظل اسم مصطفى كامل عَلمًا للوطنية المنزهة عن الأهواء، ومثالاً للإخلاص والتضحية لا يمحوه الزمان، وتبدو روح التضحية في تاريخه من الطريق الذي سلكه في الحياة، لم يسلك الطريق السلطاني الموصل للرخاء والراحة، والأبهة والجاه، ونعني به طريق المناصب، ولو هو اختاره كما فعل معاصروه لبذهم جميعًا بذكائه وكفاءته ونشاطه، ولضمن لنفسه ولأهله وذويه طبقة بعد طبقة رغد العيش، والثروة الطائلة، والمراكز الممتازة، ولكنه على عكس ذلك، اختار الطريق الشائك، طريق الجهاد ضد الاحتلال وضد الحكومة معًا، ولم يكن هذا الطريق يجلب لصاحبه نفعًا ولا جاهًا، بل هو طريق العقبات والمصاعب، والجهد والحرمان، فهذا الاختيار في ذاته يدلك على مبلغ ما فطرت عليه نفس الفقيد من الإخلاص والتضحية، والعمل لوجه الله والوطن فقط، وفي ذلك يقول في محاجة خصومه سنة ١٩٠٠: "يمكنني اليوم أن أقول أمام الملأ كله أنه لا يستطيع إنسان في العالم أن يدعي أني خالف مبدأ من مبادئي لحظة واحدة، مع تغير الظروف وتقلبات الأحوال، وموت الآمال عند الكثير من الرجال، ولا يوجد من يقول إني عملت ما عملت طمعًا في عز أو ثروة، لأن الطامع فيهما لا يقف موقفي، ولا يجاهد ضد الاحتلال، تحت سماء مصر، ولا يخطب ضد المحتلين حتى في الوقت الذي كان أخي في قبضتهم يعاملونه بالذل والاستبداد ويذيقونه أنواع العذاب وصنوف البلاء ويهددونه بالموت والإعدام في كل آن".

لقد ضحى إذن بمنافعه وراحته ومصالحه الشخصية في سبيل حياة الجهاد التي اختارها لنفسه، ولم يتحول عنها طول حياته، كما ضحى بمصالح اقرب الناس إليه وأعزهم عليه.

ذلك أول مظهر للتضحية في تاريخه، وهناك التضحية الكبرى التي تتضاءل بجانبها. كل تضحية، وهو بذله حياته. وشبابه في سبيل مصر.

فلقد رأيت مما بيناه في الفصل الخامس عشر (ص ٢٧٢) كيف كانت جهوده أقوى مما تحتمل صحته، ذكر المرحوم فريد بك أنه رافقه في سفره إلى باريس ولندن في شتاء سنة ١٩٠٦، لاختيار محرري جريدتي لتندار اجبسيان وذي اجبشيان ستندارد، وأن المرض عاوده أثناء تلك الرحلة، ولزم الفراش بباريس عدة أيام عادة فيها الدكتور روبان الطبيب الشهير ونصح

له بحضور فريد بك بعدم إجهاده قواه في العمل، وأن يترفق بصحته فلا يحملها فوق طاقتها من العناء، ويترفق كذلك بأمته فلا يحرمها وجوده حتى يتم مهمته التي وقف حياته عليها، قال فريد بك: ولكن النصيحة أتت بعكس ما كنا ننتظره، فإنه رحمه الله لما أحس بضعف قواه واستعداده للأمراض الفتاكة أسرع الخطى وضاعف الجهود فأتم معدات اللواءين الفرنسي والإنجليزي، حتى ظهر في مارس ١٩٠٧، واستمر يجاهد ويبذل الجهود طيلة سنة ١٩٠٧، كما تراه مفصلاً في الفصل الثالث عشر والفصلين التاليين.

مضى الفقيد في جهاده لا يلوي على شيء، ولا يكترث للأخطار التي تهدد حياته، فكان كالبطل المجاهد في حومة الوغي، يرى الخطر مائلاً أمام عينيه، ومع ذلك لا يهاب الموت، ويتقدم الصفوف ويجود بحياته في سبيل الوطن، وهذا لعمري أقصى درجات التضحية في الجهاد، فهو بحق باعث الحركة الوطنية ومحييها، ثم هو شهيدها وأكبر وأعظم ضحية لها، وإنه ليجدر بنا أن ننقش على قبره هذا البيت من قصيدة شوقي في رثائه:

يا صبَّ مصر ويا شهيد غرامها　　هـــذا ثـــرى مصـــرٍ فـــنم بأمـــان

***

oberkandl.com

الفصل الثاني والعشرون

نماذج من خطب الفقيد

obeikandl.com

رأينا أن نختم الكتاب بنماذج من خطب الفقيد، لتتكون منها صورة بارزة من حياته الخطابية، في مختلف مراحل جهاده، وقد اخترنا هذه النماذج من أربع من هذه الخطب: الأولى والثانية في إبان حياته السياسية سنة ١٨٩٦، وثانية سنة ١٩٠٢، في منتصف سني جهاد، والثالثة سنة ١٩٠٧ في أوج مجده الوطني.

١ – خطبته بالإسكندرية

يوم ٣ مارس سنة ١٨٩٦ (انظر ص ٧٨)

سادتي وأبناء وطني الأعزاء:

ما اقتربت من مدينتكم الزاهرة حتى شعرت من نفسي بارتياح زائد وانشراح خاص، لأنني عهدتها و أعهدها مدينة الحياة الحقيقية ومهد الرجال المشهورين بالشجاعة والبسالة والإقدام، والمقابلة الودية التي قوبلت بها من كرمائها وساداتها قبل أن أقف بينكم الليلة خطيبًا زادتني حبًا لها وميلاً لأهلها، وإني أحمل كل ذلك الإكرام من أهل الإسكندرية على عظيم رغبتهم في إعزاز مبدأ الوطنية الشريف لا على إكرام شخصي الضعيف.

ويسرني أن أحادثكم اليوم في شئون الوطن العزيز، هذا الوطن الذي تحبونه حبًا مفرطًا، وتعلمون لخيره وسعادته، وأراني موفقًا لحصولي على هذه الفرصة الثمينة التي أتبادل معكم فيها ما يختلج في نفوسنا من الآمال والأماني التي هي معنى الحياة والباعث القوي على العمل بجد ونشاط.

ويلزمني أن أقول لكم إني قبل مبارحة القاهرة أخبرت بعض أصدقائي بأمر هذه الخطبة، فأشار عليّ فريق منهم بعدم إلقائها، معللين ذلك بقولهم "إنك إذا ذهبت إلى الإسكندرية واجتمعت بأهلها وحادثتهم في مصائب مصر وآلامها ربما نتج عن ذلك شيء من هياج الأفكار، الأمر الذي لا تحمد عقباه لأنهم شديدي الوطنية وأنت شديدها وقد تدعو شدة الشعور بالواجب إلى ما يتجاوز الحدود أحيانًا" وزاد بعضهم على ذلك قوله: "ولربما انتهز خصومك وخصوم الوطن العزيز هذه الفرصة لإحداث ما يقلق ويضر لتلقى التبعة عندئذ على أهل الإسكندرية وعليك أيضًا"، فخالفتهم في الرأي وجئت ثغركم الباسم معتمدًا على حكمتكم، واعتمادي على همتكم وشجاعتكم، وإن أفضل صفة اتصف بها أهل الإسكندرية هي ولا غرو معرفة الواجب ولاشعور الصادق بحقيقة الحوادث، والواجب اليوم على المصريين كافة إنما هو التمسك بالصبر والاعتدال أكثر من ذي قبل.

obeikandi.com

وقد اتخذتم يا أبناء الإسكندرية في كل بلاد مصر مثالاً للهمة والحماسة، فلتكونوا كذلك مثالاً صادقًا للدعة والسكون والاعتدال لتصحبوا وتمسوا أساتذة لمصر كلها في تأدية الواجب نحو الوطن المحبوب.

ولقد أشاع عنكم بعض كثيري الظنون أن غيرتكم وحميتكم يستعملان أحيانًا ضد صالح البلاد، وأنكم تنفذون من حيث لا تشعرون مآرب ذوي الغايات بإحداث القلاقل، وكنت كلما أسمع مثل هذه الإشعاعات استغربها كل الاستغراب، ولي الحق في ذلك الاستغراب، لأن الغيرة التي تستعمل في غير موضعها تكون دوامًا أضر من البلادة والخمول، فلذا أناديكم– وإن كنت أعلم مني بالواجب– مناداة محب لبلاده ولمدينتكم بنوع خاص، أن تنفوا باعتدالكم وسكوتكم تهمة من يرمونكم بحب الهياج والاضطراب.

ومثل مصر اليوم وهي على باب السعادة المقبل مثل مريض قارب الشفاء ينصحه الطبيب بزيادة التحفظ وعدم التعرض للهواء لئلا ينتكس بالعلة فتعود عليه بويل أشد من ويلها الأول. فلنحترس جميعًا معشر المصريين من التعرض إلى ما وراء تعرض الوطن نفسه إلى خطر عظيم.

وإن صفتي التسامح والغفران اللتين اشتهرت بهما الأمة المصرية كانتا من أعظم الأسباب التي استمالت قلوب الأوروبيين نحوها، وجعلته يعتبرون مصر كقطعة أرض من أوطانهم فهم يقطنونها آمنين مطمئنين، متمتعين براحة البال والبعد عن البلبال، ولذا وجدنا منهم على اختلاف جنسياتهم ومللهم نصراء أشداء للمطالبة بحقوق مصر وتحقيق رغائب أبنائها، ويفرحني كثيرًا أن أرى اليوم من أكابر وأعاظم القوم فيهم قد حضروا هذا الاحتفال ولبوا الدعوة بلطف وتكرم، وهو ما يدلنا على اشتراكهم معنا في الإحساسات نحو هذه البلاد العزيزة.

وأول مدينة في مدائن القطر سكنها الأوروبيون ووجدوا أهلها بشرًا وائتلافا ولا جرم مدينة الإسكندرية، ولكم الحق يا أهلها وأعز أبنائها أن تفتخروا بذلك أعظم الافتخار، فداوموا أيها الوطنيون الأعزاء على إكرام وفاة ضيوفكم ونزلائكم الذين يشتركون معكم في الإحساسات نحو هذا البلد الأمين، وليكن مبدؤنا دائمًا "أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا".

وقد يفهم بعض الناس بالاعتدال الكف عن كل عمل يخدم البلاد ويسبب سعادتها، فتراهم مقصرين كل التقصير عن واجباتهم وهؤلاء يخطئون الاعتقاد، لأن الاعتدال لا يفيد التهاون والإهمال، وما أجمل الاعتدال مع العمل على خدمة الأوطان.

وإن في مصر فئة من الناس نسيت أن الأمل داعي العمل، فلبست ثياب اليأس وقضت بظنونها على مستقبل الوطن العزيز، وجعلت مهمتها في الأمة تثبيط الهمم وإقعاد العزائم، فلا

تنادي في المحافل والأندية إلا بأنه ليس لمصر حظ في المستقبل من الحرية والسعادة الاجتماعية، وأن شعبها قد مات من زمن طويل وليس لمفكر عاقل أن يؤمل له مستقبلا جديدًا، وترى رجال هذه الفئة اليائسة يرمون كل رجل بالدفاع عن حقوق البلاد المقدسة بعدم الخبرة وقصر النظر.

وعندي أن الرجال اليائسين وإن كانوا أقل من القليل يضرون بلادهم أعظم ضر بما يقولونه ويكررنه، إذ أن قتل العواطف الشريفة وإخماد نار الغيرة الوطنية هما لا محالة أكبر جناية تجني على الوطن وأهله، فليكن من واجباتنا أن نترك هؤلاء اليائسين في سفن يأسهم تصعدهم أمواج الأفكار وتهبطهم حتى تصل بهم إلى شاطئ الخير وبر الرفاهية فنذكرهم عندئذ بفساد مزاعمهم وخطأ آرائهم.

ولا تظنوا أيها الإخوان الأعزاء أن عملكم لخير لبلادكم يقابل من الإنجليز بالازدراء والاحتقار، كلا ثم كلا، الانجليزي الذي يحتقر مصريا يحب بلاده ويدافع عنها بصدق وإخلاص يكون محتقرًا لنفسه ولقومه، لأنه هو وكل مواطنيه أول العاملين في الأمم المتحدة على تقدم بلادهم، ولا يرضيهم أن تبقى سعيدة في داخلها فقط، بل يبذلون كل ما في وسعهم لاتساع نطاق مستعمراتها واستدرار الخير من موارده لها وحدها ولا لغيرها.

وإذا ولجت موضوع الوطنيين المصريين إزاء الإنجليز فأراني في حاجة لأن أستميحكم الإذن في التكلم عن مسألة الاحتلال وإبداء رأيي فيها بكل صراحة،

وليس من غرضي أن أطعن على الحكومة المحلية أو أنتقد على أعمالها فكلكم تعرفون مواضع الخلل في الإدارة ومواضع الكمال والانتظام، وبديهي أن نواميس الوجود قاضية بسوء إدارة كل مصلحة وطنية يتداخل في شئونها تداخلا فعليًا رجال غرباء لا يفقهون لغة البلاد ولا يعرفون شيئًا من عوائد أهلها وأخلاقهم.

وليس غرضي كذلك أن أندد بحكومة جلالة الملكة أو بالأمة الإنجليزية، لأني أترفع عن أن أدافع عن بلاده بالطعن والسباب، فضلا عما أحس به دائمًا من وجوب احترام الشعب الإنجليزي، وإنما الذي أريد ذكره وإيضاحه هو أن الخلاف حقيقة، الخلاف بيننا معشر المصريين وبين بعض الإنجليز هو: هل زمن الجلاء عن مصر حان أو لم يحن، فدول أوروبا ذوات المصالح في مصر تقول معنا إن زمن الجلاء قد حان منذ أعوام، والمستر غلادستون زعيم الأحرار وأكبر سياسي انكلترا يقول ذلك القول لعينه غير خائف لوما أو تعنيفًا وبعض أبناء التاميز يقولون ضد ذلك إن زمن الجلاء لم يحن وإن مصر في حاجة إلى وصي عليها.

وقد نرى بعض المتحزبين للاحتلال الأبدي – وهم ليسوا من الإنجليز والإنكليز لا يستطيعون أن يكونوا على رأيهم – يقابلون مطالبنا الشرعية بالسباب والشتائم، فهل يستطيعون اليوم أن يقولوا عن المستر غلادستون إنه عدو لبلاده كما يتهموننا بنكران الجميل؟

وبعيد عن ذهني أنه يوجد على الأرض رجل انجليزي يحب وطنه حبًا حقيقيًا ويستطيع القول بأن انكلترا تريد وضع يدها على وادي النيل، فإن ذلك الأمر بل هذا الجزم العظيم مناقض كل المناقضة لمصلحة انجلترا نفسها ولشرفها العالي الشأن.

وإلا فهل يرضى أبناء انجلترا أن يستعمل شرفهم آلة دنيئة لامتلاك بلاد حرة واستعباد أمة حرة؟ وهل ترضى الأمة البريطانية الغيورة على مقامها واحترامها أن يقال عنها إنها لا شرف لها ولا احترام لكلمتها العلنية وعهودها الصريحة؟ إني لا أظن ذلك وأعتقد أنكم كلكم على رأي.

وهل تسمى المروءة مروءة إذا كان معناها أن أمة أوروبية استغاث بها أمير شرقي فإغاثته ونصرته، ثم عملت ملكه واسترقاق أمته وشعبه؟

إذن فنقطة الخلاف الوحيدة بيننا وبين بعض الإنكليز هي أن زمن الجلاء على رأينا حان، وعلى رأيهم لم يحن إلى الآن، وعهد كل عاقل بالأمة الإنجليزية أنها إذا وافقت على الحقيقة وأرشدت على الصواب كانت في مقدمة أمم أوروبا مطالبة بالجلاء.

وعسير على الأمة الإنجليزية الوقوف على الحقيقة إلا إذا قام فيها خطباء من أفرادها ومن المصريين أنفسهم يبلطون ما تذيعه؛ (التيمس) وأخواتها من ذوي الأغراض السافلة من أن الإنجليز لم يقوموا في مصر إلى الآن بالواجب عليهم، ولقد سألنا شيخ الأحرار غلادستون أن يكون لأبناء جنسه المرشد لأمته عن حقيقة مسألة مصر وعن ضرورة الجلاء، وأملنا أن يجيب طلبنا ويحقق أمنيتنا.

ولكن إرشاد الأمة الإنجليزية على ما ينتظره المصريون منها وما يعتقدونه في شرفها لا يكون إلا برجال من أبناء مصر يقومون وينادون في كل بلاد أوروبا بحقيقة أحوال مصر وأمانيها ليزيدوا من أنصارها. ويكون للوطن المصري من الأمم الأوروبية نصراء عند مطالبته الأمة الإنجليزية بإجبار حكومتها على الجلاء.

ويكفينا لاستمال الأمة الإنجليزية نحو مطالبنا الشرعية أن نقول لها بكل صراحة: لقد صار الشرقيون على ريب في احترامك لشرفك وشك في محافظتك على الوفاء بعهودك، فهل لك أن تطالبي بالجلاء عن مصر لتحققي للعالم كله بقاءك على عهدك الأول الشريف، ولقد غرر بك أيتها الأمة الخطيرة بعض ذوي الغايات وقالوا لك إن الأمن لا يستتب في مصر وإن الخديو لا

يستطيع حكم بلاده برجاله، ليجبروك على الحكم بلزوم الاحتلال، فاعتقدي أن ذلك محض اختلاف وأن الأمن مستتب والأمة كلها مخلصة لأميرها محبة له.

وإلا فهل يرضى الإنجليز بأن يقال عنهم إنه ليس في إمكانهم إعادة الأمن إلى ديار مصر بعد احتلالهم لها أربعة عشر عامًا؟

إذا قلنا ذلك للأمة الإنجليزية وعرفناها أننا لا نبغض الإنجليزي، بل نبغض المحتل من حيث هو محتل، ولو كان أقرب الناس إلينا، لأننا أمة حية متمدنة نريد أن نحكم أنفسنا بأنفسنا ولا نرضى أن نبقى قصرًا تحت حكم وصي ننظر إلى تقدم الأمم الأخرى نظره الكئيب التعيس دون أن نستطيع محاكاتها ومجاراتها، إذا قلنا لها ذلك وأسمعناها هذا الصوت "صوت الحق" كانت ولا ريب أول أمة قاضية على الاحتلال، آمرة حكومتها بالإسراع بالجلاء، لأن من شأن كل أمة متمدنة تمدنًا عظيمًا كالأمة الإنجليزية أن تحترم الشعوب المطالبة بحقوقها العارفة بواجباتها.

وإذا كان صالح مصر يقضي كما قلب لكم بوجوب وجود خطباء من أبنائها يطوفون العواصم والمدائن في أوروبا معلنين آراءهم مجاهرين بإحساساتهم مطالبين بحرية بلادهم فوجود خطباء مثلهم في مصر نفسها يرشدون الأمة على الخير ويحذرونها من الوقوع في الشر أصبح أمرًا محتمًا.

وغنيّ عن البيان أن الصادق في حب بلاده لا يعرف غلا عند الحاجة، والوطني لا يسمى وطنيًا إلا إذا خدم وطنه في شقائه، أكثر من خدمته له في رفعته وهنائه.

ولا ريب عندي في أنكم كلكم تودون مثلي أن تكون مصر بلادًا حرة، منتشرة في سائر أرجائها من الإسكندرية إلى منابع النيل أنوار العلوم والمعارف، وتصبح كما كانت مهدًا للفضائل والآداب، مشرقا لشمس المدنية في بلاد الشرق، مرسحًا للتنافس في الصناعة والتجارة، مجمعًا آمنا للأجانب ذوي المصالح فيها، طريقا سهلا للرائدين، لا ريب عندي في أنكم كلكم تحبون أن تنتسبوا لمصر إذ يكون هذا شأنها، يفتخر عندئذ كلٌّ منكم أن ينادي بأعلى صوته (أنا مصري).

ولكن ألا تحبون كذلك "مصرا" خيم عليها الشقاء وحل بها البلاء وسبقتها الأمم وأصبحت بعد في مصاف الشعوب القاصرة، تناديكم وأنتم حولها: ": ألا فانصرني يا أعز البنين، ألا فارفعوا شأني بين الأمم واجعلوا لي مكانًا فسيحا بين الشعوب المتقدم الحية"، أجل! أجل! تحبونها ويجب عليكم أن تحبوها وتحنوا عليها كما يحن المرء على أمه الشفوق إذا اعتلت ويسعى في خدمتها ويبحث عن دوائها.

ولا يكن حبكم واقفا عند حد الحب وحنانكم عند الحنان، بل ليجاوزوا ذلك إلى العمل لخيرها وإعلاء شأنها.

وثقوا أيها الوطنيون الأعزاء بأن المستقبل لكم ولها، فأعملوا لسعادتها وتذكروا دائمًا قول غمبتا الشهير "ليس المستقبل بمستعص على أحد"، نعم لنعمل لسعادة الحال والاستقبال، وننفذ ناموس الطبيعة لئلا نخرج أنفسنا من نوع الإنسان ذلك الناموس القاضي على كل فرد بالعمل حتى تستريح النفس في السكينة والظلام.

ولقد كنت أحضر في أوروبا مجتمعات يتردد عليها كثير من الغربيين ذوي الجنسيات المختلفة، فكان كل يفاخر القوم ببلاده وذويه، الأمريكاني بحرية أوطانه وشرف تاريخها وحسن نظامها وكبار رجالها، والفرنساوي بشهامة أبناء وطنه وفضل جنسه على النوع الإنساني وحرية مبادئه وشرف تاريخ بلاده العظيم والألماني والإنجليزي وغيرهم كذلك، وأنا أنظر الجمع وأسمع الجميع وقلبي فائض حزنا وفؤادي مملي كآبة وعيناي مغرورقتان بالدموع، وليس يجري على لساني غير ذكر مصائب مصر وآلامها، فهل لنا أن نفاخر بالأمم يوما من الأيام ببلادنا وأوطاننا؟ هل لنا أن نكون أمة حية قوية محترمة؟ إني أؤمل ذلك، آمله من صميم فؤادي.

ومستحيل علينا أن نصل إلى السعادة التامة ونفوز برغائبنا الوطنية إلا إذا اتحدت كلمتنا واجتمعت قولبنا على محبة البلاد بصدق وتجرد عن الشخصيات فلنتحد قلبا ولسانا، ولا يكن مثلنا مثل عائلة استعلت النار في دارها وأفرادها متباغضون، فبدلا من أن يجتمعوا لإطفائها أخذوا يتنازعون ما أبقته يد النار من المتاع، غير ناظرين إلى النار تصل إليهم فتحرقهم وتحرق متاعهم وتقضي على دارهم القضاء الأخير إذا لم تُزل الشقاق من بينهم ويجتمعوا على إطفائها.

وإن يوما تجتمع فيه قولبنا على محبة البلاد وخدمتها وتتحد فيها كلمتنا يكون يوم تحقيق الآمال وعنوان سعادة الحال والاستقبال، ويحق لنا فيه أن تقف أمام الأمم كافة وننادي بأعلى صوتنا وبكل فخار (نحن بنو مصر الأحرار).

٢ – خطبته بالفرنسية في الإسكندرية

يوم ١٣ أبريل سنة ١٨٩٦ (أنظر صفحة ٨٢)

(تعريب الخطبة)

أيتها السيدات، أيها السادة.

إنـي أقـف بينكم متكلمـا وانفعـال نفسـي عظيم، ولقد كـان بـودي أن أعتذر للـدين شـرفوني بـدعوتي إلـى إلقـاء هـذه الخطبـة لـو لـم يكـن إحساسـي بالواجـب علـىّ دعـاني لإطاعـة أمـرهم والانصياع لرغبتهم؛ فجئت إلى هذه الحفلة وفؤادي منشرح لأني أخاطب نخبة نزلاء الأوروبيين أولئك العاملين بالنشاط، الذين هم بيننا طليعة المدنية الغربية (تصفيق شديد [١]).

ومما يزيدني سرورًا أني واف أمام جمعية أصدقاء بلادي أوفياء لها، لم يقصدوا بمجيئهم هذه الليلة سماع خطيب بليغ بل جاءوا ليظهروا علامة ودهم لوطني ضعيف ولمسالة مصر الشريفة الحقة.

أجل أيها السادة، يتكلم الإنسان إمامكم بكل ارتياح، وافتخار عن الأوطان ويدافع عن حقوقها المهضومة ويطلب لها مستقبلاً سعيدًا، فإنك كلكم تنسبون إلى أوطان شرفية حرة سعيدة، وتحبون هذه الأوطان وتعشقونها عشقًا صحيحًا ولا استطاعة لكم غير الموافقة للذين أوطانهم مثلكم (تصفيق متضاعف).

وإننا معشر المصريين نحب مصرنا الأسيفة بكل إخلاص، ولا نود لها شيئًا آخر غير يقظتها وسعادتها، ولكن من سوء الحظ يوجد في هذا البلد طغمة من الرجال يطعنون أشد الطعن على الوطنيين، ويدعون مع ذلك أنهم المدافعون عن الاحتلال الإنجليزي، على أنهم لو كانوا حقيقة المدافعين عنه لحسبوا عارًا عليه وخجلا، فإن انجلترا نفسها لا تستطيع أن تبغض أو تحتقر مصريًا وطنيًا إذ من ضمن الأسباب التي تنتحلها لنفسها للإقامة في مصر تربية المصريين، فهل من الجائز أن يكون المصريون حسني التربية من غير أن يكونوا وطنيين محبين لبلادهم؟ كلا! (علامان استحسان).

ولقد كان أولئك الذين يدعون الدفاع عن الاحتلال الإنجليزي يزعمون أنهم أوقفوني إلى الأبد، إذ يظنون بسذاجة لا مثيل لها أن الإجحاف الذي لحق أخيرًا بأحد إخواتي [٢] يضعف قواي أو يوهن عزيمتي أو يقلل مجاهدتي في سبيل سعادة بلادي، فأخطأوا الظن لأنني بعيد عن أن أملّ، وسأستمر بقدر استطاعتي في المدافعة عن وطني العزيز، سأستمر – ولا يوقفني في طريقي إلا

---

(١) لم يتيسر في غير هذه الخطبة معرفة المواضع التي صفق فيها بالضبط الحاضرون أو التي أظهروا فيها علامات الاستحسان.

(٢) يشير الفقيد إلى اضطهاد الإنجليز شقيقه على فهمي كامل (بك) وكان وقتئذ ضابطًا بالجيش المصري. (انظر ص ٨١).

obeikandl.com

الموت– في وصف مصائب مصر وآلامها والمناداة في كل مكان بحقوقها المقدسة، والمطالبة بحريتها واستقلالها (تصفيق شديد متواتر).

وإنا نعلم أننا بدفاعنا عن مسألة بلادنا الشريفة وبتقديسنا لها نعرض أنفسنا للضرر والخطر، ولكن اعتقدوا جيدًا أيها السادة أن همتنا لا تفتر أبدًا، لحق بنا ضرر أم لا (تصفيق واستحسان).

فليس هناك من شيء أجمل في عين الوطني من المجاهدة في سبيل بلاده، فضلاً عن أن المجاهدة بالنسبة لنا ليست أمرًا صعبًا، غذ ضد من نجاهد نحن؟ أضد الأمة الإنجليزية؟ كلا ليس جهادنا ضدها، إنما هو ضد فريق من الناس يعملون لتأييد الاحتلال الإنجليزي في مصر إلى الأبد قضاء لأغراض شخصية أو أملاً في تحقيق مآرب ذاتية.

أجل! إنا نجاهد هذه الفئة التي أعضاؤها أعداء للحقيقة، وضدهم وحدهم نبذلك كل قوانا فإنهم وحدهم الآثمون الحقيقيون في مسألة مصر، فهم ينشرون في كل مكان عن حالتها الإخبار الكاذبة ويخلقون كل يوم حججًا سافلة واهية لإطالة أمد الاحتلال البريطاني وهو الحمل الثقيل الذي لا أستطيع تحمله (تصفيق).

ومن سوء حظ أولئك المشهورين بالمبالغة في الدفاع عن انجلترا أن أعمالهم توصلهم غالبًا إلى نتائج مخالفة للغرض الذي يعملون له، لأنه كما قال حقًا فيكتور هوجو:

للحقيقة والحرية مزية خاصة بهما، وهي أن ما يعمل ضدهما وما يعمل لهما يخدمهما على السواء (تصفيق شديد).

أما فيما يختص بالأمة الإنجليزية فلا نستطيع غلا احترامها، ومهما وقع فإننا نحترمها دائمًا، كما نحترم كل الأمم الأخرى، إذ أنه لا يصح بغض أية أمة ولا يقضي على شعب من الشعوب بخطأ بعض أفرا من أبنائه، وإنا نعلم حق العلم أنه إذا كانت الأمة الإنجليزية موافقة على الاحتلال راضية به، فذلك إنما هو لكونها جاهلة لحقيقة إحساس المصريين لأنها لو كانت تعلم إحساسنا لأظهرت عدم رضائها باحتلال ضار كهذا الاحتلال ولكانت ولا محالة قضت عليه (تصفيق) ولكن وا أسفاه قد تساق الأمم غالبًا في أجهل السبل على يد من تثق به أكثر من غيره!

ولئن قالوا ليس في السياسة شيء من الشرف وإنها ليست شيئًا آخر غير الكذب والخيانة، فإننا لا نستطيع أن نتصور طرفة عين أن أمة بلغت من العظم والمدنية مبلغ الأمة الإنجليزية تجسر يومًا من الأيام على أن تخون علنًا سريرتها وتحتقر أمام الناس شرفها (تصفيق شديد

متواتر)، فإنها على نسق كل الأمم غيورة على كرامتها التي يهدرها ولا محالة أن تطيل الاحتلال الإنجليزي إلى أمد غير محدود.

وكل الذين يعرفون للشرف معنى يعتقدون مثل غامبتا " أن ليس هناك سياسة حقيقية فعلية مثمرة إذا اعتدت القوة ولو لزمن مؤقت سريع الزوال على المبادئ الراسخة للعدالة والإنسانية (تصفيق عظيم متواتر).

وإن هذه السياسة المؤسسة على مبادئ العدالة والإنسانية هي السياسة الحقيقية بالأمة الإنجليزية، هذه الأمة التي لا تزال محترمة معتبرة عند جماعة مقهورين مثلنا، عند اللذين يريد بعض سواسها أن يضحوهم هم ومستقبلهم في سبيل ناح آمالهم الباطلة.

لقد رأينا من عام ١٨٨٢ أشد المناظر وقعًا على النفوس، رأينا أكثر من ٦٠ ألف مصري ماتوا في التجريدات التعيسة لأعوام ١٨٨٣ و ١٨٨٤ و ١٨٨٥، رأينا تقهقر التعليم والتربية، رأينا انحطاط الآداب العامة وفقر الفلاح والوطن نفسه وكم رأينا من أشياء مؤلمة ومناظر مفتتة للأكباد، ومع ذلك كله قد حافظنا على سكينتنا وبقيت ثقتنا عظيمة بالأمة الإنجليزية وبوعودها وشرفها (تصفيق طويل).

واليوم يسيئون مقابلة تساهلنا وصبرنا وسكينتنا، ويخاطرون بإلقاء البلاد وأبنائها في هاوية.

أجل أيها السادة يخاطرون بإلقائنا في أعمق الهوايات وأخطرها، إني أريد أن أتكلم على حملة السودان.

أما من جهة استرجاع السودان فكلنا نريده وكلنا يجاهر بذلك علنا كل يوم فإننا نعتقد اعتقادًا صحيحًا أن مصر بدون السودان تكون أحقر أرض وأفقر بقعة في الدنيا، وبطلبنا جلاء الجنود الإنجليزية عن بلادنا لا نطلب فقط تحرير مصر من الإسكندرية إلى وادي حلفا بل نطالب تحرير كل وادي النيل لا يمكن أن يحكم النيل كله غلا بحكومة واحدة (علامة استحسان).

وإنا نود من صميم أفئدتنا أن نسترد المقاطعات السودانية التي هي لبلادنا روحها نفسها، وإنني قد أعلنت من جهتي هذا الإحساس عدة مرات، وقلت منذ خمسة أسابيع لأبناء وطني من أهل الإسكندرية عن أعظم واجب على سمو الخديو عباس باشا هو إعادة أملاك مصر المفقودة غليها، وأنا أعيد هذه الليلة ما قلته وما أقوله دائمًا، أبدًا، ولكنا ما أردنا قطر ولا نريد أبدًا أن نسترجع السودان تحت قيادة الإنجليز (تصفيق شديد).

فإن وجود الإنجليز على رأس جيشنا يكفي وحده لعدم نجاح الحملة، يكفي لتحقيق مصيبة عظيمة، وبوجودهم على رأس الجيش يحفرون بيننا وبين السودانيين هوة من أعمق الحفر تؤخر لزمن مديد صلحنا معهم، أولئك الذين كانوا من رعايا الخديوية المصرية.

وفضلاً عن ذلك فإن الذي يجعل المصريين ناقمين من حملة ناقلة إنما هو سواء المقصد الذي يبدو عند كثير من رجال انجلترا السياسيين عندما تتكلم الدول بشأن الجلاء عن مصر، فإنا لا ننكر هذه الحملة فقط لكونها داعية لتعريض كل جنودنا لخطر عظيم، وأن من أحدى نتائجها التي لسوء الحظ تبدو لنا مؤكدة إنشاء جيش جديد وجعل العساكر الإنجليزية تحتل مصر كلها في الحدود كما في المدائن. ولكننا ننكر هذه الحملة بنوع خاص لأنها تؤخر لزمن طويل تحرير بلادنا (تصفيق شديد).

أجل أيها السادة، أنها تؤخر تحرير بلادنا وهو التحرير الذي نتمناه من كل قلوبنا والذي طالما وُعدنا به.

ذلك لأن انجلترا قد كشفت بيدها الغطاء عن مقصدها، وليس هذا من الوقت الحاضر فقط، بل من سنة ١٨٨٧ عندما أراد السير دورمندوولف أن يعقد مع جلالة السلطان اتفاقية المشهورة، فإن جملة من المادة الخامسة كانت تشير إلى ذلك بالعبارة الآتية:

"إذا ظهر في ذلك الوقت- يشير إلى الوقت الذي عين للجلاء أي عام ١٨٩٠- خطر داخل مصر أو خارجها، وكان ذلك الخطر يستوجب تأجيل الجلاء تنسحب الجنود الإنجليزية من مصر بعد زوال ذلك الخطر".

فيفهم إذن من اتفاقية وولف أنه كان يخشى ظهور خطر ما في وقت الجلاء وبعبارة أخرى كان في الحسبان أمر مسألة السودان وما يجري بيننا اليوم، إذ أن خلق الاضطرابات وإيجاد الأخطار ليسا بالنسبة للسياسة الإنجليزية غلا أقل ما تنتجه يد التصنيع (تصفيق مستمر).

وإذا كانت انجلترا تريد بصدق نية وكرم أخلاق أن ترد السودان إلى مصر فكان يكفيها لبلوغ هذه الغاية أن تنجلي عن القطر، فإن الجلاء وحده يعيد لنا السودان.

لماذا بقى السودانيون مصرين على عصيانهم ضد مصر؟ لماذا لا يقبلون أي اتفاق معنا؟ لا ينكر أحد في العالم أو وجود الإنجليز في مصر هو الذي جعلهم بهذه الحالة (علامات استحسان).

(وبعد أن فند الخطيب الحجج التي يتذرع بها أنصار الاحتلال لبقائه، رد على تهمة التعصب الديني المزعوم لمصريين قال):

obeikandi.com

أجل لنتكلم قليلا عن هذا التعصب الخيالي الذي بقول أعداؤنا إنه في نفوسنا، إن أعداء مصر يريدون أن يمثلونا أمام أوروبا بهيئة قوم متوحشين مستعدين لإفناء كل أوروبي ساكن بلادنا متى رحلت العساكر الإنجليزية عنا، لقد تطرف في هذا الإدعاء أولئك الأعداء، فأرادوا أن يغشوكم أنتم أنفسكن و يسخروا من سلامة نيتكم، حيث يكررون أمامكم في الجرائد وفي كل مكان هذه الأكاذيب وهذه الوشايات، كيف ذلك أيتجاسرون على أن يقولوا أمامكم هذه الأقوال أنتم يا أوفى أصدقاء مصر واعز ضيوفها؟ كيف يستطيعون أن يغشوكم بدناءة كهذه عن صفات أمة مودتها لكم علانية؟ أمة قابلتكم– ونقول ذلك بأعظم فخار– بأوسع كرم وسخاء، إن القول بتعصبنا إنما هو أدنأ أكذوبة.

الأمة المصرية متعصبة! ومصبتاه! أما ترون بأنفسكم ايها السادة أنه إذا كانت في العالم أمة صفتها الخصوصية اللطف والوداعة فإنما هي ولاشك الأمة المصرية، فإن الكثير من الأوروبيين يعيشون بأعظم سكينة في القرى مختلطين اختلاطًا دائمًا مع الفلاحين، أي مع أكثر الناس تمسكًا بالدين، والبعض منها يتاجرون في تجارتي الربا والخمور المحرمتين في الدين الإسلامي، كل ذلك مع ما له من الفلاحين من حسن العلائق، فهل هذا من التعصب؟

هل احتجتم مرة من المرار إلى عضد عسكري انجليزي ضد مصري ما؟ هل يستطيع خصومنا أن يثبتوا أن جيش الاحتلال يحميكم ضدنا؟ وأن وجود العساكر الإنجليزية ضروري لسلامة حياتكم بيننا؟ كلا. أيها السادة، كلا.؟ (تصفيق شديدة جدًا).

ليفتش أولئك الذين يتهموننا بالتعصب في كل تاريخنا، وليجيئوا إذا كان الأوروبي في زمن من الأزمان أسيئت معاملته، من الجائز أن يذكرنا الخصوم بالذكرى التعيسة للثورة العسكرية المشئومة التي كانت سببًا في مصائب عديدة، ولكن كل رجل عاقل عادل يقول معنا إن تجاوز الحدود يقع كثيرًا في المظاهرات الأهلية الكبيرة، والدليل على ذلك الثورة الفرنساوية، ولقد حصلت في كل البلاد اضطرابات وهي حاصلة الآن وتحصل في المستقبل وفضلاً عن ذلك فإن التاريخ سيوضح لنا إذا لم تكن هذه الاضطرابات حدثت با‘مال رجال كان لهم قصد مخصوص (تصفيق).

ولماذا نذهب للبحث في التاريخ برهانًا على تسامحنا الديني؟ أليس أمام أعينكم اليوم أسطع البراهين على هذا التسامح الديني الجميل، أتظنون أنه إذا كانت أمتنا متعصبة، أما كانت تنتهز الآن فرصة غياب كل قوة عسكرية ذات شأن لكي تقوم وتحث أي اضطراب؟ أتظنون أنه إذا كانت الأمة المصرية متعصبة، هل كانت تسمح أبدًا لأبنائها أن يذهبوا لمحاربة أمة أشد تمسكا بالإسلام؟ أليس الذين يدعون أننا متعصبون في الذين يظهرون أنفسهم بمظهر السخرية

عندما يقولون كذلك إن الأمة المصرية يزداد تعلقها بالاحتلال؟ كيف إذن تكون الآمة في آن واحد متعصبة في الدين ومحبة للإنجليز! (تصفيق عظيم جدًا).

إن لأعدائنا مقصدين من القول بأننا متعصبون في الدين، إهاجة الأمة، وإلقاء بذور الشقاق بين الأوروبيين والمصريين، ولكن من حسن حظ مصر أن الأمة محافظة على السكينة عارفة بقيمة الاعتدال الديني وحسن معاملة الأوروبيين (تصفيق).

فلقد تعارفت أوروبا ومصر منذ قرن وأحبتا بعضهما فاعتبرت أوروبا مصر قطعة منها – قال ذلك وأحسن القول الخديو إسماعيل – ومصر اعتبرت كذلك وجود الأوروبيين بيننا كضمانة للتقدم والرفاهية (تصفيق طويل).

وإنا نعلم جيدًا أيها السادة أنكم أحسن نصراء الجلاء، لأنه من جهة موافق للعدالة والشرف الدولي، ومن جهة أخرى لأن مصالحكم قاضية به، أجل إن من صالح الأوروبيين النازلين في مصر أن يتحقق الجلاء لأنه إذا صارت انجلترا مالكة لمصر تصير حياة الأوروبيين على شواطئ النيل من الأمور المستحيلة، فأنكم هنا وكلاء المدينة الأوروبية في العلوم والفنون، كما أنكم وكلاؤها في التجارة والصناعة (استحسان)، واليوم الذي تصير فيها انجلترا صاحبة مصر تضع يدها على كل شيء غير تاركة شيئًا ما لأحد وتدعي عندئذ أنها الوكيلة الوحيدة للمدنية أمام وادي النيل.

إننا معتقدون كل الاعتقاد أن اليوم قريب حيث نترك وراءنا ماضيا مملوءا بالحوادث لنسير سواء ويدنا في يدكم على طريق التقدم نحو اسطع مستقبل (تصفيق عظيم).

ومتى تخلصنا من هذا النظام الإداري الذي وجهته فائدة بريطانيا العظمى وخرجنا من هذا الشتاء الطويل الذي استمر أربعة عشر عاما والذي كاد يميت أعضاءنا نعيد السير ثانيا واثقين من حقنا ومن عطف الشعوب كافة وعدالتها (تصفيق شديد).

وفي ذلك اليوم يكون تقدم مصر باهرًا.

ومتى تخلصت التجارة من الملل الذي سببه لها الاحتلال الإنجليزي فستفتح لنا ولكم آفاقا ذهبية (تصفيق).

ومتى تخلصت الصناعة من العوائق التي يخلقها لها الإنجليز في الجمارك لغاياتهم فسترقي الصناعة الأهلية وتعود فائدة رقيها على أبناء مصر وعلى ضيوف مصر (تصفيق شديد).

عندئذ يعقب الأزمات الكثيرة المتوالية السلام، وتعقب الريب والشكوك الثقة، ويعقب الموت الحياة (تصفيق متواتر).

فلنتمن جميعًا أيها السادة تحريرًا عاجلا لوادي النيل وسعادة أبدية لهذه الأرض العزيزة، أرض الفراعنة الأمجاد (تصفيق شديد متواصل وتهليل عظيم).

obeikandl.com

LA QUESTION D'ÉGYPTE
CONFERENCE
FAITE A ALEXANDRIE

LE LUNDI 13 AVRIL 1896
PAR
MOUSTAFA KAMEL

ALEXANDRIE
TYPO.-LITHOGRAPHIE CENTRALE, I.D DELLA ROCCA
1896

عنوان الرسالة التي طبعت فيها خطبة مصطفى كامل

بالإسكندرية يوم ١٣ أبريل سنة ١٨٩٦ (١)

(١) من وثائق المرحوم الدكتور صادق رمضان. وقد تلقينا أصل الرسالة من حفيدة النقيب جعفر الصادق رمضان. وكان الدكتور صادق رمضان من أصدقاء وأنصار الزعيمين مصطفى كامل ومحمد فريد.

obeikandl.com

٣ – خطبته في العيد المئيني لولاية محمد علي

٢١ مايو سنة ١٩٠٢ (انظر صفحة ١٦٧)

عمل محمد على وواجبات المصريين نحو وطنهم

سادتي وأبناء وطني الأعزاء

إني إذا وقفت الليلة أمامكم لأذكركم بمجد مضى وعظمة خلت، وأحي معكم أكبر تذكار في حياة مصر والمصريين، فإني أعلم أنكم جئتم مرتاحين لسماع هذا الخطاب، وأنكم ترون مثلي أن خير احتفال يقام لأكبر عام من عمال المجد المصري، هو المقارنة بين أيامه وأيامنا، وأعماله وأعمالنا، واستنباط عبر التاريخ النافعة، وعظاته البالغة، وتمثيل الوطن في مجده وعظمته وإظهاره للعيون والإبصار على حقيقة الحالة الحاضرة، أسيفًا كئيبًا حزينًا، مرتديًا ثياب الحداد، باكيًا على أيام كان فيها حامل الشرف والفخار بين الممالك والأقطار، أي حال مصر في هذا اليوم بعد مرور مائة عام هجرية على الحادث الخطير والأمر العظيم الكبير، على اجتماع الأمة واتفاقها حول رجل واحد واختيارها له أميرًا عليها يدير شئونها ويرفع شأوها ويعلي مقامها، أي حال حالها،أي موقف موقفها وهي التي ملأت الدنيا دويًا ونافست أقوى الممالك في جلالها، ثم انحدرت انحدار السيل من قمة ذلك الموقف العالي حتى هوت إلى هاوية ذل وانحطاط وصارت مثلا للمسكنة والهوان!

صبرًا أيها الوطن المحبوب على بلواك! فما ازدحم بنوك اليوم إلا لينشدوا أكبر العصور وأجل الأيام، ويجمعوا أمرهم بينهم على إحيائها بالجد والعمل والوفاق والوئام، صبرًا أيها الوطن العزيز صبرًا! فقد ناجت الضمائر وتفاهمت النفوس والخواطر، وشعر كل مصري بأنه الوارث لأفضل الأوطان وأعز البلدان.

صبرًا صبرً! فمن يرى ذلك الظل الممدود، ظل مؤسس العائلة الحاكمة (محمد علي الكبير) ويبصر بعين بصيرته روحه الطاهرة ترفرف فوق الرؤوس ويسمع صوته العالي يذكر المصريين بأقدس الواجبات نحو الوطن، وأهله، وينظر بعين الحقيقة إلى يده القادرة العاملة، مشيرة إلى سبيل الفلاح والرقي، من ذا الذي يرى ويبصر ويسمع ذلك ولا يعتبر؟ من ذا الذي يتنسب بدمه أو بماله أو بعلمه إلى ذلك الرجل العظيم ولا تصغر نفسه في عينه إذا رآها نفس رجال دون الرجال؟

من ذا الذي يذكر منا مجد مصر في عهد ذلك الأمير ولا يذكر أنه مسئول عن زواله مطالب باسترداده؟

obeikandi.com

أسمع المعترضين يقولون: عجبًا عجبًا! أيؤمل الخطيب أن تنال مصر في حاضر الأيام أو في مستقبلها ما نالت في غابرها، وتلبس من جديد ذلك الثوب الباهر الفاخر الذي حسدتها عليه الليالي والحوادث وسلبته منها يد الغدر والانتقام؟

أجل أيها السادة! إن للمصري أن يؤمل لبلاده مجدًا كمجدها الماضي وعزًا وسؤددًا وجلالا، كيف لا وحياة (محمد علي) وأعماله كلها دروس ترشد المصريين إلى أن تاج المجد لا يوضع إلا على رأس العامل المجدّ، وأن رايات الفخار لا تنال إلا بالعمل والجهاد، وأن أمة فتحت البلاد والأمصار يوم كانت لا تتجاوز ثلث عددها اليوم قادرة على بلوغ غاية العز والرفاهية نيل أسمى ما يرام من الحضارة والعمران.

كيف سار (محمد على) بمصر وكيف انقدها من مهاوي الهلاك، وكيف أخرجها من عالم الظلمات إلى النور، وكيف فتح بها وضرب وغلب وكيف ساد ولم يُسدّ وكيف ملأ من جنودها الديار واخضع لسلطانها البحار والأنهار، وكيف رفع ذكرها إلى أعلى منار وجعلها عاصمة الشرق ومصدر الأنوار، وكيف أبهج هذا الثغر بتزاحم الجواري في ثغره، وعمم المعامل والمصانع في المدائن، والقرى ونشر المدارس والمكاتب في أنحاء البلاد، وأخرج من أبنائه نجوم علم يتهدى بهم ولا يضل بنورهم؟

كيف وفق هذا الرجل العظيم لهذه العظائم؟ كيف أباد المفسدين والظالمين وجمع القطر تحت لواء واحد وكان ألف قطر في وطن واحد؟ هل استعان بغير المصري على تحقيق غاياته أم استعار أمة من حديد ورجالا من صلب وأرواحا شبت بين الموت والنار حتى أوتي ذلك الجلال ونال من العظمة ما نال؟

كلا! لم يصل إلى ذروة المعالي وأقصى غايات الرجال إلا بعقلك وباسك أيها المصري العزيز، فسلامًا وألف مرة سلامًا على هذا العزم المقبور وهذه الهمة المدفونة، سلاما على من نسى نفسه بعد أن أنسى العالم كل إنسان سواء.

سلمت الأمة المصرية أمرها لمحمد على والبلاد ممزقة بين المماليك يذيقونها أنواع العذاب والنكال، والشرع في أيديهم شرع الجور والاعتساف، والقانون في قبضتهم قانون الظلم والاستبداد، والبلاد منقسمة على نفسه. اسمها مصر وهي ألف قطعة وقطعة، لا جامعة بين أهلها ولا رابطة بين بنيها، ولا راحة ولا نعيم ولا حرية ولا عمل!

تولاها الرجل العظيم وهي عليلة ضئيلة لا حراك بها، فقطع دابر المفسدين والأشرار وأزال دولة المماليك كما يزول الغبار، وانقضت تلك السلطة المربعة التي قوضت أركان الدين والعقيدة وهدمت بنيان الوطن والأمة وما تركت فضيلة حتى جنت عليها ولا رذيلة حتى مدتها، انقضت

وكأنها ظل زائل أو سحابة صيف لم تدم إلا قليلا، انقضت والعالم بين مصدق ومكذب يتساءل كيف أتيح لرجل واحد أن يحو مجري الليالي والأيام وبغير تيار الحادثات العظام؟

مضت أيام المماليك ووقف (محمد علي) ناظرًا إلى هذه الأمة ليرى أي أمر تقدر عليه وأي عمل تستطيع، فرآها بعد عهد الشقاء وزمن البلاء وأيام المحن والفتن قادرة على القيام بأعظم الأعمال، فيها من روح الحياة وقوة النهوض ما يزحزح الجبال الراسيات وتخر أمامه الشم الثابتات، فجندّ من أهلها الجند وأي جند جنّد؟ جند الغزاة الفاتحين حملة النصر والفخار، جند من المصريين قوما لا تراهم أمة حتى تسلم وتستسلم جند من أعلوا مكانته ورفعوا رايته وجعلوا اسم مصر في كافة الأرجاء والآفاق عنوانا للمجد الرفيع والشرف الصحيح.

أخرج من أولئك الفلاحين الذين ظالما تصرفت فيه الكوارث كما شاءت أطبالا وشجعانًا اهتزت الأرض تحت إقدامهم إجلالا وإعظامًا، وعجزت جيوش العالم عن مجاراتهم ومناظرتهم، بعث (محمد علي) من السكينة عزما، ومن السكون همة وإقدامًا، وسار جيشه من مكان إلى مكان حاملا لواء الظفر والغلبة، فائزًا في كل بقعة بالنصر والفخر، فما هذه الروح العجيبة التي نقلت بني مصر من حال إلى حال حتى صار الجريح يأبي أن يغيب عن ميادين القتال، والطفل ولوعا بمناظر الحرب والنزال؟ ما هذا التغير الفجائي الذي اندهش لآثاره العالم طرًا؟ وأي سر جعل الأمة المهضومة الحقوق المسلوبة الإرادة أمة فتح وغزو وفوز ونصر؟

السر في هذا الانقلاب وذلك التغير أن الرجل العظيم الذي تولى أمر مصر أدرك بواسع عقله أن في أمتها كنوزا من الشهامة والذكاء مدفونة فكشف عنها الغطاء وأظهرها للعالمين ساطعة بهية تتخطف الأبصار، السر في ظهور المصريين على مرسح العالم بمظهر الفاتحين القادرين أن (محمد علي) لم يترك لليأس سلطانا على نفسه ولم يقف في طريقه لأول عائق حاول منعه عن العمل، بل اجتاز المصاعب والعقبات بعزيمة ماضية وثبات دونه الحديدة قوة وبأسًا.

اجتاز المصاعب ولم يرضه أن تكون مصر قوية في البر ضعيفة في البحر فوهبها أسطولاً ضخمًا لم يمض على إنشائه وتكوينه أكثر من أربع سنوات، وهبها أسطولا كانت في الصف الأول من أساطيل العالم تباهي به الإسكندرية ثغور الأرض وهو يباهي بها وبوادي النيل الدنيا ومن عليها.

كان الغربيون إذا جاءوا مصر زائرين يقفون أمام هذا الأسطول حائرين مندهشين [1] بهرتهم عظمة مصر وارتقاؤها سلم المعالي في قليل من الأعوام.

---

(١) أنظر تأييد ا لذلك ص ٣٣٠.

ما عساي أقول اليوم عن جيش مصر وأسطولها، ولو نقلت إليكم كتابات المنشئين والمؤرخين وآراء جماعات الكتّاب عنها لخلتم هذا الوطن غير ذلك الوطن ومصر غير مصر، ولظننتم أن حادثا استثنائيًا محا أمة عاداها الزمان فلم يترك لها إرادة ولم يلبسها غير لباس الوهن والاستسلام.

رددوا الطرف معاشر المصريين في صحف التاريخ، تروا أن مصر لم تكن ميدانًا للجنود والبحارة الممثلين لرفعة قدرها ليس إلا، بل تبدو لكم مصر المحبوبة فوق ذلك في مصاف الأمم الصناعية ذات الشأن الأول، تبدو لكم المدائن والقرى مزدحمة بالصناع والعمال يحيون أطيب حياة ويخدمون الأوطان أشرف خدمة، تبدو لكم بولاق والخرنفش وشبرا وقليوب وشبين والمحلة الكبرى وزفتى وميت غمر وفوه ومنوف وابيار والأشمونيين والمنصورة ودمياط ودمنهور ورشيد والإسكندرية والروضة والجيزة وبني سويف والمنيا وأسيوط وأبو تيج وفرشوط وملوي ومنفلوط والفشن وطهطا وجرجا وقنا ميدانا للمعامل والمصانع والورش على اختلافها. وتبدو لكم بحليها وحللها زاهرة عامرة تسعد مصر والمصريين وتكفي البلاد حاجاتها وتوفر لأهلها ثروتهم ولا تعطى الأجنبي ومن خيراتها إلا بمقدار.

ارجعوا البصر كرة أخرى إلى مصر قبل عهد (محمد علي) وقارنوا بين حالها في ذلك الحين وما صار غليه في عهده، تجدوا أرضًا بلقعًا تحولت إلى رياض وجنان وفضاء واسعًا صار فيه الألوف والملايين يحرثون الأرض ويزرعون ويستثمرون وشقاء تولى ونعيما أقام، وفوضى زالت وأمنا استتب، وزراعات جديدة دخلت إلى البلاد فأحيتها وأنمت ثروتها وملأت نواحيها رغدًا وسعدًا.

ومن ذا الذي يستطيع أن يقف أمام هذه الأمة موقف المحقق المدقق وينكر على (محمد علي) فضله في إحياء أراضي القطر ونقل زراعة القطن غليها وأيديه البيضاء على كل من يعيش من الزراعة ويعكف عليها؟ من ذا الذي ينكر إصلاحاته العديدة في الري، والقناطر البديعة التي أقامها والمصارف التي أنشأها والمشروعات التي لا تزال قاعدة لكل إصلاح؟ من ذا الذي يحارب الحقيقة والتاريخ ليتجاهل أن مصر تجني اليوم من ثمرات أعمال (محمد علي) عشرات الملايين من الجنيهات وأنه صاحب الفضل الأكبر على كل فرد من أهلها والنزلاء المستوطنين بها.

محالٌ أن تخرج مصر واحدًا من أبنائها يأتي على الحقيقة والوطنية إعلان فضل (محمد على) والاعتراف بأعماله الجسام وأفعاله العظام، ومحالٌ أن ينسى مصري تربى في مهد العلم والأدب إحسان هذا الأب الكبير والمحسن البار العظيم، وهو الذي تعلم القراءة والكتابة بعد الأربعين ليكون خير قدوة للمصريين، وهو الذي فتح المدارس والمكاتب وملأ الديار نورًا وعرفانًا،

obeikandl.com

وتولى تربية صغار الفلاحين فبهر العالم بفرط ذكائهم وعظيم استعدادهم للتعلم والانتقال من شأن إلى شأن.

دعوا الصانع والمزارع، واسألوا كل متعلم في مصر: ماذا كان يكون حالك لو لم يعلم (محمد علي) أباك من قبل؟ أما كنت تكون في ظلمات الجهالة بعيدًا عن مشارق النور والحياة والوجود؟

أجل، إن كل مصري شب وتعلم وتهذب وعرف أن حياة الفكر والجد هي الحياة الصحيحة وأدرك أن أسمى الهبات هبة العقل وأن أجمل حلية لهذه الهبة الغالبة تثقيفها بالعلوم والمعارف، مدين لمؤسس العائلة الخديوية بما هو فيه من نعمة ونعيم وإنه لخليق بكل مصري نال العلم بفضل (محمد علي) أن ينتسب إليه بالروح والوجدان انتساب بنيه وذويه إليه ويسلك السبيل الذي وجه الهمم والعزائم إليه ليبلغ بالوطن والبلاد الشأل الأولى والمقام المحمود.

أيها السادة:

مهما بحث الباحث في حياة (محمد علي) ومهما حكم على عصره فإنه لا يستطيع إلا الاعتراف بأنه أحاط مصر بسور من القوة والرهبة، ورمى إلى إنشاء حكومة منتظمة فيها تدير أمورها على قواعد راسخة وأصول ثابتة، وجمع شملها فبعد أن كانت مفرقة موزعة على المماليك يتصرف كل واحد منهم في الأموال والأرواح والأعراض كما يشاء وتشاء الأهواء صارت وطنا واحدًا لأمة واحدة يجمعها لواء واحد تحت سيادة أمير عظيم لا يذكر اسمه إلا مقرونا بالاحترام والإعظام.

ومهما اختلف الناس في اعتبار نتائج أعمال (محمد علي) فلا مراء في أنه وهب مصر عقلا مدبرًا وقلبا شاعرًا وساعدا شديدًا ومجدا تليدا، وأنه وهب المصريين وطنًا وأمة وحكومة ولسانا، وطبع على قولبهم وأفئدتهم محبة الوطن والشهامة و الإقدام وحبب إليهم القمح والنصر ورفع الراية المصرية على كل صقع ومكان.

أنظروا معاشر المصريين إلى سياسته في حكومته تجدوها قائمة على مبادئ ثلاثة لا تدوم دولة بغيرها ولا تحيا مملكة بغير إحيائها: وهي أولا حماية الوطن من اعتداء الأجنبي وسلطته، ثانيا ترقية الجيش المصري إلى أسمى الوظائف وترشيحه إلى استلام مقاليد الأمور حتى لا تحتاج البلاد لأجنبي يزاحم بنيها، وتدريب المصريين على كل عمل وصناعة حتى تحفظ الثروة الأهلية في البلاد ويزداد الوطن عزًا ورغدًا ونعيمًا، ثالثا الامتناع عن الدّين واجتنابه كل الاجتناب.

بأي قلب أم بأي ضمير أم بأي لسان أحدثكم عن حماية الوطن وصيانته ومع اعتداء الأجنبي على ربوعه وصده عن منازله، ومصر اليوم تمثل الاستسلام للإنجليزي والرضوخ لسلطته، والامتثال لإرادته؛ وهي هي التي ردّته عن الديار تحت إمارة (محمد علي) وفي ظل رايته، وقالت له: مكانك أيها المهاجم! مكانك أيها الداخل! مكانك أيها المزاحم، إني أ/ة حية تأبى الضيم والهوان ولا تدرك للحياة معنى بغير الحرية والاستقلال!

بأي قلب أم بأي ضمير أم بأي لسان أحدثكم اليوم معاشر المصريين عن حماية آبائنا للوطن ودفاعهم عنه ونضالهم عن حوزته أيام (محمد علي الكبير) وقد حاولت انجلترا أن تقضي على هذا الملك الجديد وهذه الدولة الناشئة وتزيل من سماء المجد والإقبال هذه الشمس المشرقة فأراها يومئذ بنو مصر أي امة هم، وأراها (محمد علي) أي أمير هو! فتركت الثغور والبلاد، آسفة على فشلها، معجبة بهذا المجد الباهر والعزم القاهر والوطنية الحقة والهمة الحديدية.

أعجبوا أيها المصريون لهذا الحادث الخطير ولتصرفات الليالي كيف أفرحت مصر وأبكتها في يوم واحد، أفرحتها في يوم ١٤ سبتمبر من عام ١٨٠٧ حينما جلت الجنود الإنجليزية عن ثغر الإسكندرية بعد احتلال دام ستة أشهر، وأبكتها في يوم ١٤ سبتمبر من عام ١٨٨٢ حينما دخلت الجنود الإنجليزية عاصمة الديار المصرية.

كوفئت مصر في يوم بأكبر مجد وأشرف فخار، وعوقبت في مثال ذلك اليوم بعد خمسة وسبعين عامًا باحتلال جرّ عليها العار والشنار، كوفئت لأنها صانت الوطن والديار، وعوقبت لأنها سلمت البلاد وانشقت على نفسها ونسيت تاريخها وتناسبت مطامع أعدائها وامتلأت نفوس دعاة الثورة فيها بالأنانية والأغراض الذاتية والآمال الشخصية، فذهب الوطن فريسة، وقُدمت الأمة على هيكل الدنايا ضحية، وتولى المجدُ القديم والعز التليد وأقام الذل والهوان.

هذه عبرة العبر في التاريخ وموعظة المواعظ، فالتقطوها معاشر المصريين الراغبين في خير البلاد ورفعتها، واذكروها في كل وقت وآن، أذكروها، وتأملوا في تاريخ ذلك الرجل العظيم، تأملوا كيف ينتدب علماء الغرب وحكماءه وسادات أدبائه وفضلائه ليعلموا المصريين العلوم والصناعات، حتى إذا صاروا من رجالها وتحلّوا بجمالها سلمهم مقاليد الأعمال وكافأ المعلمين الغربيين على عملهم وزودهم بالشكر والإحسان.

رأى محمد علي أن الدَّين (بفتح الدال) أساس الاستعباد، وأن أسمى المبادئ الجديرة بالاتباع مبدأ القائلين "إذن تستعبد واستدن تُستَعبدْ" فلم يستدن لأنه خطب السيادة ولم يخطب الاستعباد، وطلب القوة ولم يطلب الضعف والمذلة.

حقًا إنها لآية الآيات ومعجزة المعجزات، كيف يشيد (محمد علي) المدارس والمعامل ويقيم الأبنية للجنود والعساكر، وينظم الري والفلاحة ويشكل جيشًا بلغ عدد رجاله مائتين وثمانين ألف جندي (٢٨٠٠٠٠) وكانت إيرادات مصر غذ ذاك لا تتجاوز مليونين ونصف مليون من الجنيهات، ثم لا يستدين عزيز مصر ولا يعرف الدّين ولا الدّين يعرفه!

ائتوني بعظماء الرجال وكبراء الأمم وفحول السياسة، واعرضوا عليهم هذا العمل المدهش وهذه الآية الكبرى، وأنا كفيل بأنهم لا يصدقون به ولا يؤمنون بها، هل في طاقة رجل مهما بلغ من العظمة وقوة الإرادة أن يقوم بهذه العظائم ولا يتعثر في ذيله بالديون الثقال؟ من هذا الرجل الذي تعدى حدود الطاقة البشرية حتى استطاع أن يخرج أمة من الجهالة والظلمات إلى العلم والنور، ويشيد فيها ملكا قائمًا على جيش عديد وأسطول قوي رهيب ومعامل ومصانع ومدارس، ثم لا يستمد بمال الغير ولا يستعين على أعماله بغير قوة البلاد وهي التي حَّملها الزمان من قبل ما يدكّ الجبال ويفل الإرادة الماضية ويودي بعزائم الرجال؟

ما هذا المجد الفخيم الذي يحدثنا عنه التاريخ؟ أين ذلك المصري الذي كان إذا جاب المدائن والممالك تحولت عن غيره الأنظار والتفتت إليه الشعوب بعيون الإعجاب والاعتبار؟ أين ذلك الذي إذا فاخر القوم ببلادهم أعطى المقام الأول ونال الشرف الأعلى وأعد وطنه في مقدمة الأوطان ومصره في الصف الأول مصاف الأمصار والبلدان.

أين عصرُ نقل عنه الناقلون أن الدول غدرت بمصر وحرقت أسطولها في ثغر (ناورين) وأماتت من بحارتها البواسل ستة آلاف رجل وتقدم ضابط فرنساوي بالخبر إلى رجل الحروب وبطل المواقع إبراهيم باشا، فهز الأمير أسه وقال: "ما أنشئت السفن والبواخر إلا لتكون فريسة النار أو البحار فلست بآسف عليها، وإن إبي لقادر أن يجدد مثلها في عام أو بعض عام!".

أين ذلك العهد البعيد ليتعزى به المصري الحزين الأسيف؟ أين هو ليبعث في القلوب المستميتة شيئًا من الحياة والقوة، ويدل المصري على حقيقة موقفه وقيمته ومكانته؟ أين هو ليخطب فيكم بلسان الحال فيبلغ من نفوسكم ما لا يبلغه لسان المقال؟

أين كانت اليابان يومئذ؟ أين كانت هذه المملكة الناشئة والدولة الفاخرة؟ كانت- وكأنها لم تكن- في دياجي الظلمات وغياهب الجهل، تعد إذا ذكرت في عداد الأموات. فقف أيها المصري فوق أطلال التاريخ وارقب الحوادث وأنظر إلى أي حال صارت اليابان وغلى أي حال صرنا، وماذا كنا نبلغ من الشأن والشأو لو سلكنا ذلك السبيل الذي وجهنا إليه محمد على الكبير.

ليس الموقف موقف حزن يميت النفوس بل موقف عظة واعتبار، وإن العبرة الكبرى في حياة (محمد علي) والدرس المفيد الذي يلقيه التاريخ على أبناء هذه الديار، أنهم لم يفقدوا

العصبية والوحدة الملية، ولم يقفوا في طريق التقدم على حسن استرسال غيرهم في السير إلى الأمام إلا لأنهم فقدو الثقة بأنفسهم ونسوا ما قاموا به من جلائل الأعمال.

ثقة الأمة بنفسها هي الأساس الذي يبنى عليه مجدها ويشاد عزها وسؤددها، ترى الأمة إذا اعتقدت الخير والقدرة في مجموعها وأفرادها تغلبت على الحادثات والأيام وقهرت ألد أعدائها واجتازت المصاعب غير هيابة ولا وجلة.

هذه أمم الغرب يترك الفرد من أبنائها بلاده ويطرف الأرض من جانب إلى جانب، وهو في كل مكان ينزل به قوي الجنان شاعر بأنه الممثل لوطنه الدال عليه، معتقد أنه رايته التي إذا أهينت أهين وإذا مست بسوء قامت لأجلها بلاد وقعدت، وما هذا الاعتقاد وذلك الشعور إلا لأن الأمة وثقت ببعضها وارتبط كل فرد ببقية أفرادها، فصارت كتلة واحدة لا يعتدي عليها زمان ولا يجرؤ على المساس بها إنسان.

أما الأمة التي ظنت السوء بنفسها وتركت هذا الظن الفاسد ميراثا لأبنائها وأحفادها فقل عليها السلام وادعها أمة الموت والفناء.

لا يؤلم المصري المحب لبلاده مثل ما يسمعه ذات اليمين وذات الشمال من سوء مظنة المصريين بأنفسهم وتناقل هذه الأقوال المميتة للخواطر القاتلة لكل حركة واردة من الكبير إلى الصغير وشيوعها حتى بين الأطفال الناشئين.

ما هذا السمُّ القتال الذي تناولته الأمة عن طيب خاطر؟ ما هذا البلاء المدمر للبلاد الذي حل لها وتساقط على رؤوس أهلها وهم إليه ناظرون؟ كيف تنسى هذه الأمة العزيزة أنها هي التي فتحت وقهرت وضربت وانتصرت وبهرت العالمين بقدرتها وشدة بأسها؟

لا ريب أن أصل هذا البلاء وجرثومة ذلك الداء إهمال أمر التربية الوطنية ومحور آثار التاريخ المهذب للعقول والأرواح من المدارس والمكاتب، التاريخ هو المدرسة الجامعة لكل طبقات الأمة والمعلم الذي يتأدب بأدبه الأمير الخطير والوزير الشهير والعالم والطالب، والفقير الصغير، من ذا الذي يقرأ تاريخ محمد علي ويرى على صفحاته آيات الشهامة والبسالة التي حلى بها المصريون أيامهم وأسماءهم وأوطانهم ولا يشعر بأنه ينتسب لأمة عالية إن أهانها الزمان أياما فلسوف يرغم على احترامها وإكرامها ورد سؤددها غليها، من ذا الذي يسمع بتلك السفن الجارية والجيوش الجرارة والمعامل العديدة والمدارس الجمة والحياة العامة والاستقلال المصان ولا يرى نفسه من سلالة قوم فاتحين متمدنين جديرين بأن يخلد مجدهم وتدوم أيامهم.

يقول الجاهلون إن الزمان لم يترك من آثار محمد على شيئًا مذكورًا، ولا يدرون أنه ترك شيئًا كبيرًا، ترك بذور المجد والمدنية، ترك المواد الحيوية لإحياء الأمم وإعلاء قدرها، ترك العلوم والأنوار.

إن لم يكن إلا هذا الأثر– أثر العلوم والمعارف – فحسب العصر الماضي شرفًا وفخارًا، لأنه ألقى إلينا السلاح الذي ما حارب الجهل والرذيلة حتى تغلب عليهما، ألقى إلينا مفتاح الرقي والتقدم وآلة المجد والغلبة وسلم السؤدد والمعالي ونبراس الكمال، ألقى غينا معدا الحياة فإن استخدمناها كما استخدمها سدنا كما ساد وسادت الديار، وإن أسأنا استعمالها أسأنا إلى أنفسنا وقضينا على الحاضر والمستقبل شر قضاء.

قد ينسى بعض المصريين أن (محمد علي) تولى أمر البلاد باختيار أهلها وانتخابهم، وأن علماء مصر وأعيانها رفعوه إلى الإمارة بأيديهم في مثل هذا اليوم من مائة سنة هجرية مضت، وأن هذه رابطة أكيدة بين الأمة والعائلة الحاكمة لا يصح لأحد أن ينساها ولا يليق بمصري أن يتناساها، هذا إخاء بين الشعب والأمير لا تنفصم له عرى، ولا ينحل له رباط.

إذا كانت مصر لم تذكر في بعض حوادثها الماضية وأيامها السالفة هذه الرابطة وهذا الإخاء مما أودى بها وساقها إلى مهاوي الدمار والشقاء، فخليق بها أن تذكر الآن وفي كل آن هذا العهد المتين وتزداد بعرش الخديوية ارتباطًا كلما مضت الأيام وتوالت الأعوام.

وكيف لا يذكر المصريون ذلك العهد ويبذلون الأرواح والأموال في سبيل تأييده وصيانته وهو هو الحامي لبقايا المجد والاستقلال.

في أي موقف يرى المصري بلاده الآن؟ في موقف البلاد المستعبدة التي تنتظر من وقت إلى آخر تحقيق وعود دولة متمدنة عظمى ولا تزف لها الأيام إلا مطلاً في الوعد وبلاء على بلاء.

دخلت انجلترا هذه الديار مدعية إصلاحها وتأييد عرش الخديوية المصرية فيها ونشر ألوية الأمن والعدل في نواحيها وإعداد المصريين إلى إدارة شئون بلادهم بأنفسهم، ثم الجلاء عنها وتكرها لأهلها، فماذا عملت وأي طريق سلكت وإلى أي نتيجة وصلت؟

وكان أول عمل للدولة الإنجليزية أنها قدمت الوعود والعهود للعالم كله بالجلاء عن مصر ولو بعد حين، وتركها لأهلها المصريين، فاعتقد صدق أقوالها الكثيرون من الشرقيين وقالوا: "محال أن يكذب القوم المتدنون!" لأنهم لم يكونا ليعلموا أن السياسة الغربية قائمة على مخالفة الوعود والنكث بالعهود، وأن المدنية البريطانية تطلب سيادة الأمم من مثل هذا الطريق حتى صرح الساسة الإنجليز أنهم لم يقدموا هذه الوعود وتلك العهود إلا السذج والبسطاء، وأنهم ينزهون

العقلاء والحكماء عن التصديق بوعد في السياسة أو بعهد في تدبير امتلاك الأمم واغتيال حقوقها، فعلم المصري يومئذ ما لم يكن يعلم، وعلم أن انكلترا احتلت بلاده لتقيده بقيود الذل والاستعباد، لا لتضع على رأسه تاج الحرية والاستقلال، علم أن وطنه صار مرمى السهام البريطانية، وأن حياته ومجده على خطر، وسمع صوت البلاد يناديه الحذار! الحذار!

ولكن صوت الإنجليزي ارتفع ليدله على وسائل الرضوخ للمذلة والاستماتة، ارتفع ذلك الصوت، صوت العاملين على ابتلاع مصر مناديًا بأن المصريين لا يزالون أمة طفلة محتجة لمرب حكيم ومرشد عليم، فهل هم المربى وذلك المرشد؟.

دلَّ سلوك انجلترا في مصر ويدل على أنها لا تريد لعرض الخديوية قوة ولا للبلاد خيرًا، ولا للمصريين تقدمًا وارتقاء، ونحن لا نقول هذا القول جزافًا بل نقدم عليه ألف برهان وبرهان، وما ام الإنجليز يفاخرون ويفتخرون بحرية القول والكتابة فإننا نناقشهم الحساب ونسألهم أمام الملأ كله عن نتائج سياستهم بعد عشرين عاما، نسألهم أين الأمن الذي ادعوا توطيد أركانه؟ هل ازدياد الجرائم والجنح والمخالفات وتعدد السرقات وكثرة اللصوص واعتراف النائب العمومي بذلك كله وتفنن الأشرار في إشعال النيران وحرق القرى والبلدان مما تفاخر به انجلترا وتعهد آية يحق لها أن تمن بها على مصر والمصريين؟ هل انتقال الوظائف من أيدي المصريين شيئًا فشيئًا وخروج السلطة من قبضتهم وإماتة كل نفوذ لهم مما يرشحهم لاستلام مقاليد الأمور والسير بالبلاد إلى الأمام:؟ هل محو كل روح وطنية في المعارف وقلب مدارس الحكومة حتى صار عاليها سافلها، يؤهل المصريين للتقدم في ميادين الحضارة والعمران؟ هل إنشاء المحكمة المخصوصة، وتعلى المحتلين على المصريين واعتداؤهم على القانون والعدالة والنظام العام مما يؤيد المساواة في البلاد ويزيد القطر ارتقاء وانتظاما، هل رفع العلم البريطاني على عاصمة السودان وإخراج العديد من الضباط المصريين من الجيش بعد أن ابلوا ضد الدراويش أحسن بلاء وقاموا بأعمال تخلد لهم المجد والفخر مما يؤيد عرش الخديوية المصرية ويستوجب حمد المصريين؟ هل بقاء الحكمة بغير سلطة مراقبة عليها من الأمة كما يشاء المحتل و مما يجعل مصر في بحبوحة الراحة والأمن ويوطد أركان الدستور فيها؟

ذكرتُ الدستور وطالما ذكره الذاكرون من أنصار الاحتلال ورجاله، فأين هو الدستور؟ أين ذلك الدستور الذي يلجم الحكومة بلجام من حديد ويهب الأمة حرية الرأي والفكر وحق المراقبة على أعمال الحكام وسن القوانين والشرائع ومناقشة الوزارة عن الصغائر والكبائر؟ أين ذلك الدستور ونحن لا نرى إلا مستشارين من الإنجليز يحركون الحكومة يمينًا ويسارًا، ويتلقون الأوامر من رجل واحد ولا يحاسبون أمام أحد من أبناء هذه الأمة؟ هل معنى الدستور سقوط السلطة المصرية وقيام السلطة البريطانية مقامها؟

كلا ثم كلا! إنما الدستور هو منح الأمة حق الإشراف على كافة الأعمال ومراقبة ما تجربه الحكومة لخيرها أو لضرها، وسؤال الوزارة عن كل صغيرة كبيرة، وتغييرها بغيرها إذا أساءت استعمال السلطة أو تهاونت في خدمة البلاد بالدستور هو ألا يستطيع أحد مهما كان عظيمًا وكنيًا أو أجنبيًا، أن يمس القوانين والنظامات بشيء، فهل يوجد رجل واحد في هذه الأمة يجرؤ على القول بأننا اليوم متمتعون بنعمة الدستور وأن المحتلين لو شاءوا تغيير أي نظام موجود أو خرق سياج أي قانون لا يستطيعون؟ لعمري إن ما يسميه المحتلون وأنصارهم بالدستور لهو الفوضى في لباس النظام، والاختلال في قالب الاحتلال، وإلا فأين الضمانة التي تطمئن لها القلوب والخواطر؟ أين ذلك المجلس الذي وعدت به بريطانيا على لسان اللورد دفرين؟ أين هو لنعتقد الأمة المصرية أن الدولة البريطانية لم تحتل بلادها إلا لتسعد حالها وتعلي شأنها وتوقف المصري على مكانته وتعرفه أنه إنسان له حقوق الإنسان؟

يظهر بعض الإنجليز اندهاشًا قيامنا ضدهم، ولست أدرى كيف أكيف هذا الاندهاش؟ كيف أكيف وهم أبناء أمة متمدنة تعرف معنى الوطن والوطنية وتدرك أن الحرية هي أسمى نعيم وأن صيانة البلاد من اعتداء الأجنبي أقدس فرض على أهلها، كيف أكيفه وقد قال اللورد فرين: "إنه يحق للمصرين أن يبغضونا من عميق قلوبهم إذا أقمنا طويلاً ببلادهم مهما أسعدناهم وأسبغنا عليهم من النعم، لأن الاستقلال لا ثمن له!؟

نحن نرى من العار والخيانة عدم المطالبة بالجلاء، نحن نرى من الجبن والاستماتة عدم المطالبة بالدستور أي بالنظم الذي تتمتع به الأمم المتمدنة، ونحن نرى من موت الشعور وفقدان الوجدان السكوت عن حقوقنا الشرعية التي يعترف بها كل إنسان، ونعتقد أن الإنجليز أنفسهم يحتقرون كل مصري يرى هذا الرأي ولا يجاهر به، لأنهم إن أحبوا أن يخون الرجل وطنه لأجلهم، ولا يحبون الخائنين، وإن كرهوا القائمين في وجوههم المدافعين عن بلادهم لا يستطيعون إلا تعظيم الوطنية ورجالها أني كانت وأني كانوا!

أيها السادة:

أصبحنا بعد مائة عام قضينا جانبًا منها في الجد والعمل وغرس بذور المدنية وفتح أبواب مصر والسودان للعالم المتمدن في آخر مصاف الأمم، ممتاز عنا الصر والبلغار وشعوب صغيرة لم تكن في الحسبان، بالحرية والاستقلال والاحترام العام، فمن البلية والشقاء والموت الأدبي أن نقف متفرجين على حركة العالم ونترك الأمم الأخرى ترتقي منصة السمو والجلال!

هذه حياة (محمد علي) لنا أن نستنبط منها ما يفيد البلاد في الحال والاستقبال، لنا أن نضربها مثلاً للأبناء والناشئين ليعلموا أن مصر كانت من القوة والبأس بمكان، وإنها تكون كذلك لو طرقوا أبواب الاتحاد والوئام وسلكوا مسالك العزم والإقدام.

لا تقوم دنية مصر في مستقبل الأيام ولا يدوم لها شأن إلا إذا شيدت على الأمة وبالأمة وعرف الفلاح والصانع والتاجر والمعلم والمتعلم وكل فرد من أفرادها أن للإنسان حقوقا مقدسة لا يصح المساس بها، وأنه لم يخلق ليكون آلة بل ليعيش عيشة الأحياء، وأن حب الوطن هو أسمى شعور تتحلى به نفس بشرية، وأن أمة ضاع استقلالها لا مقام لها ولا شأن لأبنائها.

الوطنية أيها السادة، هي العماد لكل مملكة والأساس المتين لكل دولة، الوطنية هي الروح العاملة في كل بلاد العالم المتمدن، الوطنية هي أم المعجزات وأصل كل تقدم وارتقاء، الوطنية هي التي تنقل الشعب الجبلي إلى الحضارة والعمران، والاقتدار وسمو القدر في قليل من الأعوام، الوطنية هي الدم في عروق الأمم والحياة لكل ذي حياة. الوطنية هي الغذاء الذي يحتاج غليه جسم مصر وروحها قبل كل غذاء فقدموها للأبناء في غدواتهم وروحاتهم وحركاتهم وسكناتهم، واطبعوها على قلوبهم.

obeikandl.com

أيها السادة:

أن الرجل العظيم الذي غير أحوال مصر وكساها حلة من المجد والفخار وفق عمله بين مبادئ المدنية العصرية ومبادئ الدين الإسلامي الكريم، لأنه رأى أن في الإسلام كافة المواد الحيوية لأرقى مدنية يشتهيها بنو الإنسان، وأنه الدين الذي يؤهل أهله وذويه على اسعد حالات الحياة وأتم نعيمها، فإذا اقتدينا به واعتمدنا على الإسلام وقواعده وأوامره وإرشاداته، وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها واعتبرنا بعبر التاريخ وتركنا النزاع الذي أضر بمصر والإسلام واجتنبنا كل افتراق وشقاق، بلغًا أقصى ما يرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع.

وإننا لا نبغي في هذا الطريق الذي يدعونا لسلوكه كل محب لمصر معاداة أحد من النزلاء أو الخروج عن خلة إكرام الغريب التي اشتهرنا بها، بل إننا نشكر كل أجنبي يساعدنا على خدمة الأوطان كما شكر آباؤنا من قبل وكما شكر تاريخ مصر سليمان باشا،، وفارين، وسجرّا، وكلوت بك، وسيريزي، وبسون بك، وجومار، وجومل [1]، إلا أننا نطلب الاحترام المتبادل والاشتراك في المنفعة اشتراك إخاء، لا اشتراك شحناء وبغضاء، وإنه يسرني أن أعلن شكر الأمة المصرية كلها لأولئك الكرماء من النزلاء الذين شاركوها في مصابها بالحرائق الأخيرة والنوازل المؤلمة، فجادوا بالأموال عن كرم وسخاء، وخففوا بها وبصادق العوام الآلام عن المنكوبين.

يحلو لي أيها السادة أن أختم خطابي بكلمة قالها نابليون يوم دخل مصر، قال ذلك الرجل الكبير: "لا تُكوّن الأسماء العظيمة إلا في الشرق"، فالشرق كان ولا يزال ميدانا واسعًا للمجهودات الكبيرة الهمم العالية، لا يزال الشرق مهدًا لعظماء الرجال وكبراء الشعوب، وإذا كان قد حُرمهم حينًا من الدهر طويلاً فما علقة ذلك الحرمان ألا اليأس والقنوط.

فانزعوا اليأس من قلوبكم معاشر المصرين، وطهروها من القنوط وسوء الظن بالله وقدرته، وابنوا مجدكم المقبل على التربية الوطنية السليمة الصحيحة، وضموا صفوفكم واجمعوا أمركم ليخرج من بينكم رجال عظماء يبدلون ليل الأوطان بالنهار ويردون ما فقدت من استقلال ومجد وفخار!

(١) هم من المستشارين الذي استعان بهم محمد علي في نهضة مصر – انظر تفصيل ذلك في كتابنا (عصر محمد علي).

obeikandl.com

٤ – خطبته بالإسكندرية

يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ (أنظر ص ٢٦٤)

سادتي وأبناء وطني الأعزاء

بأي لسان أشكركم على مظاهرتكم الودية لي وانعطافكم العالي علىّ، وليس لم مطمع في هذه الحياة إلا أن أراكم متفقين معي شعورًا ورأيًا وقد حققتموه فأبلغتموني أقصى ما أتمنى.

المبدأ وخادمه

ألا إني أعلم أنكم أردتم بمظاهرتكم هذه أن تجيبوا أولئك الأعداء الظاهرين والمستترين وتسمعوهم أصواتكم جهيرة وتقولوا للملأ كله إنكم أعوان الشعور الوطني وأنصار النهضة المصرية، وأن خدام هذه البلاد يجدون منكم على الدوام كل مؤازرة ورعاية.

إني أعلم أنكم تعتقدون كما أعتقد أن الذين يهبون قواهم وأعماره لبلادهم لا يسحبون لأشخاصهم وجودًا مستقلا عن المبدأ الذي يعملون لنصرته، بل يندمجون في المبدأ نفسه، فكل تحية إليهم فهي تحية إليه.

ولذلك استقبل دلائل الحب والميل التي تظهرونها نحوي على أنها إكرام لأشرف مبدأ قام ويقوم في خدمته الإنسان، ألا وهو مبدأ إحياء الوطن وردّ مجده واستقلاله إليه.

حياة مصر بعد الاتفاق عليها

أيها السادة! إن مصر خطت في الثلاث السنوات الأخيرة خطوات واسعات في سبيل النهضة الأهلية وأسمعت الأمم والدول صوتا ما تعودن سماعه من قبل.

ظن الساسة الإنجليز أنهم إذا اتفقوا مع فرنسا على مسألة مصر طويت أوراق هذه القضية الخطيرة وخفت كل صوت ومات كل أمل وحل اليأس محل الرجاء، وصار الشعب المصري أثرًا كتلك الآثار القديمة التي يأتي السائحون لرؤيتها في كل عام.

ولكنهم أخطأوا خطًا كبيرًا، نعم أخطأ أولئك الساسة الذين يظنهم العالم كله أمهر الناس في تدبير الشئون وإعداد الحوادث ومعرفة المستقبل.

obeikandi.com

أخطأوا لأن العزلة التي صُرنا غليها بعثت فينا روحا جديدا أرشدنا إلى الحقيقة التي لا قوام لشعب بدونها ولا حياة لأمة بغيرها، ولا وجود لنفر من الناس إذا لم يتبعوها، وهي: أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها، وأن الشعب كالفرد لا يكون آمنا على نفسه إلا إذا كان قويًا بنفسه مستجمعًا لكل عدد الدفاع وآلات الذبِّ عن الشرف والمال والحياة.

نعم فقهنا أن الشعوب التي لا ترجو الرقي غلا بمعونة جيرانها وأصدقائها ولا تحفظ استقلالها إلا بالاعتماد على حلفائها، هي شعوب في خطر وحياتها مهددة في كل وقت.

دهش الذين كانوا لا يرون فينا إلا أمواتا تتحرك كما بُهت أعداء الوطنية المصرية من هذه الروح الجديدة التي دبت في الأمة وقالوا: عجبا أيحيا هذا الشعب؟ أتنهض مصر بنفسها؟ أتعمل للاستقلال وحدها؟ أتقدر على تحقيق مطالبها بمحض إرادتها؟ أتقاتل اليأس والقنوط وتتغلب على الحوادث والكوارث؟

أجل وألف مرة أجل! إن مصر بالغة آمالها ومحققة أمانيها بإرادتها وهمتها، إنكم تقولون يا أعداء مصر إننا عشنا القرون الطوال أذلاء تعساء يحكمنا الغير وتتبدل السلطة الأجنبية، ولا يتبدل شقاؤنا وتجعلون هذا القول حجة علينا ودليلا على أننا خلقنا للذل والهوان، وأن السيادة الأهلية لن تسكن وادي النيل أبد الزمان! كذبتم وحق مصر يا أعداء مصر! كذبتم على الله والناس، فما بقاء هذه الأمة بعد اشتداد الإحن والمصائب وتعدد الإهانات والنوائب ووجود الروح الوطنية فيها بعد كل ما كان إلا دليل قاطع على أنه قد حان الوقت لأن تسترد حقوقها المسلوبة وتسترجع مكانتها في الوجود، تقولون يا أعداء مصر أنها لبثت زمنا طويلا مكبلة بقيود الذل والاستعباد، وتتساءلون كيف تعيش بعد ذلك في سؤدد واستقلال؟ وفاتكم أن ذلك الماضي المظلم يزيدنا تمسكا بحقنا في مستقبل مضيء باهر، نسيتم أن الشقاء المديد أدعى إلى هناء مثله مديد، وأن شعبا قضى القرون وقواه لا تنصرف إلى خير الوطن يكون أقوى شعوب الأرض يوم وجهها إلى هذه الغاية السامية.

تقولون يا أعداء مصر أننا لو أفلحنا لما نلنا هذا الاستقلال إلا بعد حين طويل فنجيبكم أننا لو سلمنا بقولكم لما جاز لنا أن نتأخر لحظة واحدة عن العمل.

لأننا لا نعمل لأنفسنا، بل نعمل لوطننا، وهو باق ونحن زائلون، وما قيمة السنين والأيام في حياة مصر وهي التي شهدت مولد الأمم و كلها وابتكرت المدينة والحضارة للنوع الإنساني كله!

إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصري ونبتهج به، وندعو له كأنه حقيقة ثابتة، وسيكون كذلك لا محالة! فمهما

تعددت الليالي وتعاقبت الأيام، وأتى بعد الشروق شروق وأعقب الغروب غروب فإننا لا نمل ولا نقول أبدًا: لقد طال الانتظار!

إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا إلى اشرف غاية اتجهت إليها الأمم في ماضي الأيام وحاضرها، وأعلى مطلب ترمي إليه في مستقبلها، فلا الدسائس تخيفنا، ولا التهديدات توقفنا في طريقنا، ولا الشتائم تؤثر فينا، ولا الخيانات تزعجنا، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التي تصغر بجانبها كل غاية.

نعم إنا لو تخطفنا الموت من هذه الديار واحدًا بعد واحد لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا: "كونوا اسعد حظا منا، وليبارك الله فيكم ويجعل الفوز على أيديكم ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق الوطني والحرية الأهلية والاستقلال المقدس!

بلادي بلادي! لك حبي وفؤادي، لك حياتي ووجودي، لك دمي ونفسن لك عقلي ولساني، لك لبي وجناني، فأنت أنت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر!

حب مصر وإحياؤها

يقول الجهلاء والفقراء في الإدراك إني متهور في حبها، وهل يستطيع مصري أن يتهور في حب مصر؟ إنه مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التي يدعو إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها.

ألا أيها اللائمون أنظروها وتأملوها وطوفوها واقرأوا صحف ماضيها، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض هل خلق الله وطنًا أعلى مقاما وأسمى شأنا وأجمل طبيعة وأجل آثارًا وأغنى تربة وأصفى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز؟

اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد إن مصر جنة الدنيا وأن شعبا يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح في حقها وسلم أزمتها للأجنبي.

إني لو لم أولد مصريا لوددت أن أكون مصريا!

قد يرى السفهاء، والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصري مما لا يليق بإنسان، ولكن أي شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء الأمة التي سبقت الأمم كافة في العلم والمدينة والأدب؟ أي رفعة يسعى الشريف إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذًا لشعوب البشرية ومربي العالم كله؟ أي سؤدد ترمى النفوس الأبية إليه أعلى من إخراج الوطن المصري من الظلمات إلى النور وإحلاله المحل الأول بين الأوطان الأخرى التي كانت في الدجنة الحالكة يوم كانت بلادنا مشرقا للعرفان؟

obeikandi.com

ليت شعري، أي لذة وسعادة ومكافأة يطلبها الوطني المصري أكبر من اشتراكه في هذا العمل الخطير الذي هو أجل عمل يراه العالم في القرن العشرين، إن المكسب الأدبي للوطن المصري في هذه الخدمة يربى على أتعابه ومجهودات بكثير.

متطرفون!

أيها السادة!

يروق لبعض الجهلاء والمسخرين لخدمة الإنجليز أن يلقبونا "بالمتطرفين" ويقسموا الأمة فرقا وأقسامًا، وما دروا أنه لا يصح أن يوجد في البلاد الفاقدة استقلالها المتحكم فيها الأجنبي إلا حزب واحد هو حزب الوطن، حزب الحرية حزب الاستقلال، وقد جهلوا أو تجاهلوا أنه ليس للبلاد التي يحتلها الأجنبي إلا سياسة واحدة: وهي ساسة المطالبة بالاستقلال، وأن كل قول أو عمل يؤدي إلى إضعاف الروح الوطنية وهدم جزء أو كل من ثقة الأمة بنفسها وبمستقبلها هو أكبر أذى يحلق بالبلاد نسوا أن قانون الحاكم في معاملته للمحكومين خاضع لدرجة احترامه لهم، فإن رآهم أمواتا في أزياء أحياء يقولون مالا يعتقدون ويطلبون منه الإصلاح كما يطلب السائل الإحسان لا كما يطلب صاحب الحق حقه، استبد فيهم وسخرهم للسلطة كما تسخر الأنعام!

نلقب بالمتطرفين! ولماذا؟ لأننا نطالب بحقوق مصر واستقلالها! لأننا نذكر انجلترا بشرفها وعهودها ووعودها! لأننا نقول لها بصوت الحق والاعتقاد القوي، إن المستقبل يكفل ذلك وأنه خير لها ألا تقاوم الحوادث فيما بعد، وألا تحاول إعدام أمة خلقها الله للحياة والعمل!

متطرفون! لأننا نعلن ثقتنا الكامل بمستقبل بلادنا، ونقول لهذه الأمة في الصباح والمساء: اليوم عسر وغدًا يسر واليوم أسر وغدا فخر، اليوم احتلال وغدًا استقلال، اليوم عناء وشقاء وغدًا رخاء وهناء!

متطرفون لأننا نقول للأمة اعملي وحافظي على السكينة، إياك والقلاقل فهي تخدم العدو وتضر بالوطن، إياك والانقسامات فإنها منشأ الخراب والدمار، إياك وهوس العداوات الدينية فإنها آفة الآفات وجالبة المحن، إياك وسوء ظن الملأ المتمدن بك فإن الشعوب في المدنية متضامنة ويا شقاء من سار ضدها!

متطرفون! لأننا تقول للأمة خذي من العلم أوفر قسط وتسلحي بأسلحته واملأي وادي النيل من نوره، وردي إلى الفقير حقه ونصيبه من هذا المنهل العذب.

متطرفون! لأننا نردّ تهم العدو نثبت للعالم كله أننا متمدنون وأنه ليس للتعصب بيننا وجود وأن الإسلام عامل قوى لترقية الأمة ونشر أنوار المدنية فيها.

obeikandi.com

متطرفون! لأننا رفعنا أصواتنا محتجين على فظيعة الفظائع في دنشواي وعارضنا السياسة الإنجليزية في دعاويها ووقفنا في وجوه أعدائنا، والحق سلاحنا والصراح عدتنا والإقدام مطيتنا.

متطرفون! لأننا نمثل مصر للأمم تتدفق حياة ونشخصها قوية ناهضة شريفة المقاصد أبية لا ترضى المذلة ولا تعرف الكذب والخداع.

متطرفون! لأننا لا نطالب استعمار بلاد الغير ولا استعباد شعب من شعوب الأرض، بل نقنع بطلب الاستقلال لوطننا.

فإن كنا نعتبر متطرفين لأننا نعلن ذلك كله ولأن هذه خطتنا فأكرم بالتطرف، ويا فخارنا بأن نقلب بالمتطرفين!

ومن منكم لا يفخر بأنه متطرف، وأيكم لا يريد أن يكون سائر المصريين متطرفين؟

وهل يكون الاعتدال في هذه الحالة شيئًا آخر سوى الخوف والجبن والرياء واستعمال خطتين و إتباع سياستين ومخاطبة الناس بلسانين؟ ومن ذا الذي يرضى لنفسه ولقومه بهذا الاعتدال وما هو في الحقيقة إلا المذلة في أبشع مظاهرها والموت الشنيع الموجب لاحتقار الأمم جمعاء.

عجبًا! عجبًا! أنلقب نحن بالمتطرفين لأننا نطلب استقلال وطننا من اشرف السبل وبأكمل الوسائل ولا نريد أن نتعداه بالاعتداء على أحد، على حين أن الإنجليز لم يكتفوا باستقلال وطنهم بل استعبدوا الأمم وتوسعوا في الاستعمار وملكوا البحار ولا يزال أكثرهم يقول: هل من مزيد؟

هل هم يلقبون بالعقلاء المدبرين لأنهم انجليز ونلقب نحن بالمتطرفين لأننا مصريون؟ هل الوطنية التي تروق وتعجب هناك، تؤذي وتؤلم هنا؟

هل مصر دون بريطانيا في الجمال حتى تحدد محبة المصريين لمصر ولا يعرف لحب الإنجليز لبريطانيا حد؟

كلا و ايم الحق كلا، إن مصر جديرة بأن تُحّب بكل قوة، بكل عاطفة، بكل جارحة، بكل نفس، بكل حياة!

لا عجب إذا وقف من لا يعرف هذا الحب باهتًا أمام من يعرفونه، لا عجب إذا دهش الذي لا يتألم لمصاب وطنه ولا يشعر بأوجاع بلاده ممن يتألمون ويشعرون، لا عجب إذا كان الذين خلقوا وقلوبهم من صخر يعدون وطنية من ولدوا ولهم قلوب إنسانية جنونًا في جنون.

أعداء الوطنية

أيها السادة:

لا يجعل أحد منكم أن الحركة الوطنية المصرية أزعجت محبي الاستعمار من الإنجليز فحاربوها بدنشواي فخابوا، وبزياد جيش الاحتلال فأخفقوا، وبتهمة التعصب الديني ففشلوا وأضحكوا العالم طرًا، وها هم الآن يحاربونها بالخونة والمنافقين بعد أن عهدوا الأمر للدخلاء طويلا فلم يبلغوا منا مأربًا، وإنهم لمخفقون أيضًا في هذه السياسة الجديدة، إنهم لو جردوا جيوشًا من أعداء الحركة الوطنية المصرية فإنها لا تزداد أمامهم إلا قوة وحمية وثباتًا وإقدامًا.

ليقلبوا نظام التعليم ما استطاعوا وليحاربوا الناشئين ما أرادوا، فإن رجال الغد لا يكونون إلا مصريين وطنيين متشربين بمحبة بلادهم متطلعين لأن ينيلوها من المجد والسؤدد أسمى مما نالت الأمم الأخرى، لينفقوا الأموال ذات اليمين وذات الشمال لشراء الضمائر الخربة والنفوس المنحطة، فإنهم إن كسبوا فردًا واحدًا قام من الوطنيين الصادقين العشرات لهدم ما ينبون ودك ما يقيمون.

إن أمة دبت فيها روح الوطنية وطمحت نفسها للاستقلال لا تموت أبدًا، وإن صواعق السياسة كلها لا تحول ضميرًا لاذ بالوطن عن وجهته!

أيها السادة:

إن الوطنية واحدة لا تتعدد! وقد يضل الإنسان في أمور كثيرة ويخطئ في مسائل عدة، ولكن إذا كان هناك شعور لا يضل الرجل فيه ولا يخطئ أبدًا في تقديره وتكييفه وإظهاره بكل مظاهره فهو الشعور الوطني، لا يحتاج المرء إلى علم ولا إلى فلسفة ولا إلى خبرة وتجارب ليقول إذا سأله السائل: "ما رأيك في مسألة احتلال الإنجليز لبلادك؟": "إن خروجهم غاية آمالي وإن العمل له أقدس الفروض المحتمة علىّ"

إن أجهل الشعوب وأبعدها عن العلم والحضارة والمدنية تشعر بهذا الشعور لأنه طبيعي ولا يكون الإنسان إنسانًا إلا به.

لذلك كانت ضجة الأمم شديدة ضد من قالوا بإماتة هذا الشعور، ونادوا بأن الوطن خيال وأن الراية قطعة من قماش وأشاروا باعتصاب الجنود لو قامت الحرب ودعت الأمة أبناءها الأشداء للذب عنها.

أنظروا إلى فرنسا وهي الدولة التي امتلأت صحف تاريخها يذكر الوطنية وآثارها الفخمة وورث الأبناء عن الآباء فيها حب الوطن والدفاع عنه حتى صار هذا الشعور مقدسًا لا يقربه أحد بسوء، كيف يتهتز الآن من شمالها إلى جنوبها ويقول خدامها الأمناء بأعلى أصواتهم:

"حذار حذار من "هرفي" وأنصاره فإنه يريدون هدم بناء الوطنية الفرنسية، أي بناء المجد الحقيقي والحياة العالية، وإن عدوي أفكارهم اضر بفرنسا من كل جيش فاتح".

فإذا كان هذا مبلغ سخط الشعوب القوية الراقية على أعداء الوطنية، فكم يجب أن يكون سخطنا شديدًا عليهم ونحن أحوج شعوب الأرض إلى هذا الشعور الذي لا ننال حقًا إلا به ولا نبلغ مأربا إلا بفضله.

إننا ما رأينا وما سمعنا ولا روي لنا التاريخ أن أمة سلبت حقوقها واختلس استقلالها وضربها الأجنبي ضربة الاستبداد والاستعباد يقوم من أبنائها من يمجد هذا الأجنبي ويقوله له:

" أنت السيد وأنت المنعم فافعل ما شئت؟"

أسمعتم أن أيرلنديًا واحدًا قال هذا القول؛ أوصل إليكم أن بولونيًا من أجهل البولونيين طأطأ رأسه أمام الاحتلال الأجنبي؟ أم علمتم أن صغار البولونيين أدهشوا العالم كله بتمسكهم بوطنيتهم؟

إن من يظن أن الإنجليز يحبون الخونة يخطئ خطأ كبيرًا، نعم إنهم يستخدمونهم لأغراضهم ولكنهم يحتقرونهم اشد الاحتقار، لأن شعبًا ينشأ الفتى فيه وهو يرى امتلاك الأرض ومن عليها حقًا من حقوق أبناء جلدته لا يعتبر الخيانة إلا جناية الجنايات.

أين كانت تكون عظمة انجلترا وسلطتها لو كان فيها من الخائنين من ترى مصر، هل كانت تسود الأمم وتملك رقاب الشعوب وتبلغ من الثروة والسؤدد هذا المبلغ؟

كلا وأيم الحق كلا، أنها كانت تكون ممزقة الوجود متفرقة الكلمة متباينة الآراء يلعب بها الأجنبي ويسيرها في الطريق الذي يختار.

فلا قوام؟لأمة ولا سلامة لبلاد بقوة العقيدة الوطنية، ولا تدرك الشعوب هذه القوة إذ إذا كانت شديدة الحكم على من يتلاعبون بالوطنية، قاسية في تأديبهم ومعاقبتهم.

سمعت البعض يقول عني إني شديد في تقريع من خالفوا الواجب الوطني ومالوا عن مصلحة البلاد، فأجيبهم اليوم بأنه إذ صح التسامح في بعض الأمور وفي ظروف معينة، فإن التسامح في الوطنية إعداد لها وقضاء عليها، وإن من يتسامح في حقوق بلاده ولو مرة واحة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان.

سياسة المغالطة

ينادي البعض في هذه الأيام بأن كلمة الاستقلال توجع الإنجليز وأنه أشير عليهم من بعض أنصار مصر في انجلترا بأن الأصلح و الأوفق الاكتفاء بطلب الإصلاح وإهمال مسألة الجلاء والاستقلال، أو على الأقل تأجيلها إلى حين، ويعمل ذلك البعض لترويج هذا الرأي، ويندفع في طريقه طاعنًا في المطالبين بالاستقلال قائلاً إنهم متطرفون! وإني مفصح الآن أمام الأمة كلها عن رأي في هذه السياسة التي يتوهم ذلك البعض أنها أكبر ضرب من ضروب الدهاء.

أحرار الإنجليز ومصر

إن العمل بآراء الإنجليز الذين يشتغلون بمسألة مصر في انجلترا ليس مما يطالب به مصرين لأن هؤلاء الإنجليز يعملون لخدمة انجلترا بالذات، فهم يريدون أن تكون سياسة بلادهم سياسة لين ومهارة بدلا من أن تكون سياسة شدة وصلابة، وهم أن اتفقوا معنا في بع المسائل قد يختلفون في الجوهر، ولذلك نرى بعضهم يرى بمزيد الاستياء الحركة الوطنية الداعية إلى الاستقلال.

فنحن مسلوبون والإنجليز هم السالبو، ونحن طلاب حق مقدس والإنجليز هم مغتصبو هذا الحق، فلا سبيل إلى الاتفاق بيننا وبينهم إلا باعترافهم بحقنا وردّة إلينا.

أما القائلون بأنه يتم الاتفاق بين المصريين والإنجليز على أساس تضحية الشرف البريطاني، وتضحية استقلال مصر، أي خيانة المصريين لوطنهم وخيانة الإنجليز لشرفهم ووعودهم وعهودهم، فإنما بوجهون إلى الأمتين أكبر مسبة ويطلبون اتفاقًا باطلاً، وأي احترام لعقد أساسه الخيانة الصريحة؟ إننا نشكر كل إنسان ينصف مصر ويعترف بحقوقها كلها أو بعضها، ولكنا لا نتقيد برأي أحد ولا نتأثر بسياسة خاصة، بل يجب أن نكون خدام العقيدة الصحيحة السلمية، خدام العقيدة الوطنية.

فإن قال المنتصرون لمصر في بعض أمورها من أحرار الإنجليز إن المطالبة بالاستقلال تؤلم قومهم وطالبونا بالعدل عنها، وجب على كل مصري أن يجيبهم قائلاً: "لكم دينكم ولي دين".

فساد سياسة المغالطة

يتوهم أنصار سياسة المغالطة أنهم مهرة قادرون وسياسيون محنكون، فلذلك هم يريدون أن يخدعوا الدولة الإنجليزية ويغلبوها بقوة الدهاء، هم يقولون: "لنهجر طلب الاستقلال ولنطالب

الإنجليز بالإصلاحات الداخلية مثل تأسيس مجلس نيابي ونشر التعليم حتى إذا صرنا أصحاب الحول والطول في البلاد قلنا لهم: "انجلوا عنها" فلا يستطيعون إلا أن ينجلوا خاضعين ممتثلين.

اللهم إني أعترف بأني لست من المهرة في الساسة حتى أدبر مثل هذا التدبير وأصرح بأنه لم يخطر لي لحظة واحدة على بال بأني قادر على أن اصرع السياسة الإنجليزية بمثل هذه المهارة الفائقة، كما أني مع عداوتي الأكيدة للاحتلال، لا أرى الإنجليز قد تحولوا بسرعة البرق أطفالاً صغارًا حتى تدخل عليهم هذه الحيلة المضحكة.

باطلاً يعتقد البسطاء أن الإنجليز مع كونهم ينوون البقاء في مصر يقبلون منح أهلها حكومة دستورية، لأنه لو جاز ذلك لكان وجودهم في هذه الديار يوم يؤسس فيها مجلس نيابي تام واسع السلطان نافذ الكلمة لغوًا، ولأصبحوا في هذا القطر لاعبين.

إن إعطاء المصريين مجلسًا نيابيًا حقيقيًا – لا صورة يراد بها السخرية وذر الرماد في العيون– هو تجريد للاحتلال من كل سلطة، فلا يستطيع المعتمد البريطاني إبقاء مثل دنلوب في نظارة المعارف مع سخط الأمة كلها عليه، ولا يمكن تعيين مثل المستر هيل في مدرسة الحقوق والأكفاء من المصريين يعدون بالعشرات إن لم نقل بالمئات، ولا يقدر أن يطلب أربعمائة ألف جنيه لبناء ثكنات للجيش البريطاني والبلاد في أزمة شديدة وحاجتها للمال ظاهرة للعيان، ولا يتيسر له صرف تلك الاعتمادات الطائلة للسودان ومصر في أشد الحاجات إليها، ولا يجد سبيلاً لمسخ الحكومة الأهلية وتمكين الإنجليز من كل فروعها ومحاربة الأمة في كل ميولها وسلبها جميع حقوقها.

إنما تساعد انجلترا بكل قواتها على تأسيس حكومة دستورية في هذه الديار يوم تنوي حقيقة الجلاء عن مصر: ولذلك طلبتُ دائمًا المجلس النيابي مقرونًا بطلب الاستقلال.

ألا إن الخطة التي وضعتها الحكومة الإنجليزية عندما احتلت هذا القطر هي ترشيح المصريين لأن يحكموا أنفسهم، وإقامة معالم الدستور بينهم ثم الجلاء عن بلادهم، هي خطة متماسكة كل التماسك ولا يمكن تنفيذ مبدأ من مبادئها دون المبدأين الآخرين، فترشيح المصريين لأن يحكموا أنفسهم يجعلهم أقوياء أشداء راقين في الشعور الوطني فلا يرضون بحكم الأجنبي، ومنحهم مجلسًا نيابيًا يحصر السلطة في أيديهم فلا يبقى للإنجليز بجانبهم عمل ما.

ولذلك صرحتُ أيها السادة بفساد سياسة المغالطة وبضررها الشديد على مصر والمصريين لأنها تؤدي إلى اعتراف فريق من الأمة بقبول الاحتلال وتظهره بمظهر الضعف الشديد و لا تثمر ثمرة ما، هذا فضلاً عن كونها قاتلة للروح الوطنية بإبعادها المصريين عن ذكر الاستقلال والتعلق به.

سياستنا

أسمع المعترضين يقولون: وبم تمتاز سياستكم على سياستهم وما ثمراتها؟

فأجيب بأن سياستنا هي سياسة الصراحة والمناداة بالحق والدعوة للاستقلال، وهي وحدها الموصلة إلى كل الغايات الحسان فالصراحة وقول الحق من الخلال التي تحمل الحاكم على احترام المحكوم.

فالإنجليزي لا يشكل في أن كافة المصريين يودون الاستقلال من أعماق قلوبهم، فإذا رأي بعضهم يقول عكس ذلك ويتحبب إليه ويطعن فيمن يخالفونه في خطته عرف أنه منافق واحتقره ورمي الأمة بعدم الاستعداد للاستقلال.

وقد قال غمبتا حقًا وصدقًا: "لأجل أن تنال محبة الإنجليز يجب أن تنال احترامهم" أن الإنجليز أنفسهم في حاجة لمن يسمعونهم الحقيقة الصارخة، وهي أن أساءتهم وآلمتهم في الظهر فإنها أفيد في الواقع من نفاق المنافقين وكذب الكاذبين.

أليس أولئك المنافقون هم الذين أدخلوا في نفس اللورد كرومر اعتقادات كاذبة بشأن الأمة المصرية فاعتدى عليها قولاً وفعلاً وفر بيده هاوية بينها وبينه بفظيعة دنشواي ويسبّها في وطنها ودينها حتى فارقها وألسنتها تشيعه بالسخط الشديد؟

فمن من الإنجليز يرضى لشرف بلاده ومصلحتها أن يكون كل عهدها في مصر كرومريا؟ ألا يقول معنا بضميره أن لم يقل بلسانه إن الصراحة والصدق هما أمتن أساس لأشرف سياسة.

obeikandl.com

الاستقلال والوصول إليه

إن الذين يطالبوننا بعدم ذكر الاستقلال إنما يريدون أن تموت الروح الوطنية في مصر، أ أن تموت الأمة المصرية، لأن حياة هذه الأمة ومستقبلها مرتبطان بمقدار قوة هذه الروح في الشعب.

يتساءل البعض عن الوسيلة الموصلة إلى الاستقلال، وهذا تاريخ الشعوب البشرية يدلهم على أن الوسيلة الموصلة إلى الاستقلال تنحصر في بث روح الوطنية الصحيحة والشهامة والإقدام في الأمة، وإعلاء ملكتها، وإيجاد حب السؤدد والرفعة، ومسابقة الأمم الراقية، وجعل الاستقلال رائدها.

فإذا تمكنت هذه الروح وتلك الميول من كل مصري فتحت المدارس العلمية والصناعية والتجارية والزراعية في كل مكان، وظهرت آثار النخوة والهمة والتضامن في كل جهة وناحية، واتحدت الأمة في الغايات والمقاصد وازدادت ثروتها في المال والعلم والوطنية والوئام، وقضت على كل عمال الخصام والانقسام وصارت أمة من أقوى الأمم فعلاً، واضطرت انجلترا يومئذ لأن تتفق معه على الجلاء والاستقلال، تفضيلاً لمودتها على عداوتها، لأن أمة تبلغ هذا الشأن لا تلبث أن تستخدم الحوادث– وما الحوادث مسيرة بإرادة دولة أو برغبة إنسان– فتنال استقلالها رغما من كل معارض فيها.

فالدعوة للاستقلال وبث الروح الوطنية الطاهرة، هما المؤديان إلى تحقيق آمال الأمة المصرية، فليكن معتقد المصريين جميعا أن نجاة مصر لا تكون إلا بهمم المصريين، وإن ارتقاءنا موكول إلى عزائمنا. فلنطلب النهوض من أنفسنا ولنعمل له بالهمة والصدق والاتحاد.

يقول البعض إن المناداة بالوطنية كلام في كلام، نسى ذلك القائل أن أهم الأعمال البشرية وأرقى الجهود الإنسانية تنحصر في إدخال عقائد جديدة في النفوس، لأن العقيدة تحرك الجبال.

فإدخال الروح الوطنية في نفوس المصريين لتجتمع كلمتهم حول الوطن العزيز ويتفقوا في المطالبة بمجده واستقلاله، لهو أكبر الأعمال.

ومن قال ضد ذلك فقد أنكر الديانات وتأثيرها والتاريخ وأحكامه والعوامل الفعالة في الشعوب كلها.

العالم ومصر

أيها السادة:

عرف المصريون أجمعون أن اعتقاد العالم فيهم قد تغير وأنه أصبح يرى فيهم أمة حية رشيدة بعد أن كان يعتقد فيهم ضد ذلك، ولماذا؟

أليس لأنه علم أنهم محبون لوطنهم راغبون في خيره واستقلاله وأن الحركة الوطنية المصرية في نمو مستمر.

ليقل لنا الطاعنون فينا أكانت تبلغ هذه الحركة الوطنية شأوها الحالي لو لمت تكن قد سيرت بقوة وصراحة صارمة لا محاباة فيها؟ أليس من الحقوق الطبيعية لمن سلب حقه أن يعلو صوته بدرجة صوت سالبه، إن لم يرتفع فوقه؟

فأي لوم يوجه غلينا أننا في أقوالنا وكتاباتنا وأفعالنا نذكر الأمة الإنجليزية بالكرامة والاحترام فهل فعل المحبون للاستعمار من الإنجليز فعلنا؟ هل قالوا مثل قولنا؟ هل كتبوا مثل ما كتبنا؟

كلا وألف مرة كلا، إنهم ما أسمعونا إلا الشتائم والمطاعن البذيئة ولاتهم الباطلة، هذا شيخ ساستهم لورد كرومر أبت عليه آدابه وتجاربه وخبرته أن ترك مصر دون أن يسب أهلها جميعًا ويلقبهم بالعميان ويقضي عليهم بالذل إلى أبد الزمان، فهل قام مصر واحد يسب الأمة الإنجليزية كما سب لورد كرومر الأمة المصرية؟ هل خالف واحد منا الأدب والكمال أو نسي سمو القضية التي نخدمها وقلد اللورد فيما قال.

لا ريب في أن العدو نفسه يجيب سلبًا أمام ضميره ويعترض بأن المطالبين باستقلال مصر ساروا في طريقهم والحمية والحكمة عندهم متلازمتان.

obeikandi.com

المعارضة الوطنية والحكومة الإنجليزية

أيه السادة:

إن الحكومة الإنجليزية التي فخارها في وطنه الجدل والمناقشة والسعي وراء الحقيقة تعلن عجزها في مصر إذا جارت أولئك المضطرين من الحركة الوطنية النادبين سوء حظهم لوجود أفراد من هذه الأمة يقولون الحق جهارًا ولا يخافون فيه لومة لائم، لأن الحكومة القوية تزداد قوة بفضل المعارضين الواقفين لها بالمرصاد المنادين بسيئاتها المشهرين بأغلاطها الدالين لها على عيوبها، فما بالك بسلطة الرجل الفرد. بسلطة الأجنبي الجاهل بأخلاق الأهالي وميولهم ومطالبهم ورغائبهم؟

أليست هي أحوج السلطات إلى قوة معارضة تقف أمامها موقف الخصم العنيد الذي لا ينزل عن حق ولا يسكت على عيب ولا يستر نقصًا و لا يجامل في خطأ، بل ينادي بما يراه ويعتقده وينتقد الأعمال بصراحة وبطش شديد؟

ألا إن حكومة كحكومة مصر لا يزال شكلها ونظامها ابعد الأشكال والنظم عما يرجوه المصريون لبلادهم ويطلبونه في الصباح والمساء، لأجدر حكومات العالم بأن تسمع أصوات المخالفين لها وتنظر في انتقاداتهم بعناية لا بتعنت وغيظ، فإن الموقف لا موقف خدمة عامة وعمل للصالح العام لا موقف خصام وعناد.

يقول بعض الصحف إن الحكومة تأبي تقرير ذلك الأمر النافع وهذا المشروع المفيد لأن المعارضين أو المتطرفين أو المتحمسين أو أعداء انجلترا في مصر طلبوا ذلك الأمر وهذا المشروع، وأن المسألة صارت إلى المشاكسة والعناد والمبالغة في النكاية بالخصم.

ومثل هذا القول هو أكبر مسبة توجه إلى رجال الحكم!

إن الحكومة الصالحة العاملة لخير الرعية هي التي تلتقط الحقيقة أني وجدتها، وتعمل بالرشد والصواب ولو كان خصمها هو مرشدها، فهي تزداد قوة على قوتها ونفوذا عند الرعية إذا اتبعت رأي خصمها متى كان حقا، لأنها تثبت بذلك أنها حكومة خير ورشاد لا حكومة طيش وأهواء.

أما إذا اعتقد الجمهور في الحكومة أنها لا تعمل إلا ما تريد وأنها تهمل كل صوت يرتفع بالحق ما دام قائلة ليس من مملقيها، فإن مقامها يسقط في نظر الناس ويسئ الكل الاعتقاد فيها وتكون قد أوجدت بنفسها وبإرادتها الشقاق والافتراق بنيها وبين المحكومين.

obeikandi.com

أي معنى لافتخار الإنجليز بسيادة حرية القول وحرية الأقلام في مصر إذا كانت هذه الحرية لا تفيد الحكومة شيئًا ولا تصلح المعوج من أمورها؟ وهل القصد من هذه الحرية أن يسمح للمصريين بأن يبكوا استقلالهم وينادوا بالويل والثبور على سالبيه ليس إلا؟

اللهم إن حرية لا تعطي الأمة حقا في إدارة شئون البلاد، ولا تجعل للناطقين باسم الشعب سلطانًا أدبيًا محترمًا عند الحاكمين، لحرية أجنبية عن حرية الشعوب المتمدنة ولإهانة حقيقية للأمة تقدم إليها في شكل نعمة.

سيئات المحتلين وفساد حكمهم

ماذا يريد الإنجليز منا؟ أيريدون أن نسمى سيئاتهم حسنات ونصفق لضياع حقوقنا واستيلائهم على بلادنا، وتجريدهم إيانا من كل سلطة ونفوذ؟ هل كانوا يسرون بمثل هذا الحال لو كانت بلادهم محتلة بدولة أجنبية؟

اتفاقية السودان

مَن من المصريين يذكر اتفاقية السودان ويشكر المحتلين؟ وكيف يشكرهم وهم قد ضغطوا على حكومة في قبضتهم فأتت ما أرادوا مع مخالفة الأمر للفرمانات السلطانية وبطلانه من الوجهة القانونية؟

من ذا الذي يمدح هذه السياسة، سياسة القوة والجبروت التي أنكرت حقوق مصر في السودان فعلا بعد أن روينا أرضه بدمائنا الغالية وأنفقنا عليه الأموال الطائلة.

أين العدل؟؟

أي مصري يرضى عن قوم لا يعرفون العدل والإنصاف والمساواة وتلك الكلمات الضخمة والمعاني الفخمة إلا إذا كان الأمر متعلقًا بمصري، أما إذا كان له مساس بإنجليزي فلا عدل ولا إنصاف ولا مساواة!

أليست الوكالة البريطانية هي التي أقامت الدنيا وأقعدتها يوم أدعى أمامها أحد الأرمن بأن أخاه سجين في سراي رأس التين وأنه يعذب بغير حق؟ ألم تنتدب يومئذ المستر شابمن للتحقيق وتفتيش السراي أي القيام بعمل لم نسمع بمثله في حكومة أخرى؟ ألم تقل يومئذ في الجرائد الخادمة لسياستها إن هذا أكبر مظهر من مظاهر العدل وإنه يحق للمصريين أن يشكروا المحتلين ليلا ونهارًا ويرتلوا آيات الثناء عليهم؟

obeikandi.com

فأين هذا العز اليوم؟ أين تلك الهمة العالية في تأييد العدل وعدم التمييز بين الصغير والكبير؟

كيف سكنت عواطف المدينة والإنسانية والإنصاف والمساواة مرة واحدة في قولب السادة الإنجليز لما اتهم عالم من كبار العلماء الفرنسيين مستر دنلوب بتهم شنيعة يأبى الحر قبولها والسكوت عليها.

أين المظهر العادل أيها المحتلون؟ أين أبناء الأمة التي تعد من أكبر مفاخرها عدم التستر على مرتكب أثيم؟ أين اختفوا!

أني هم لنسمعهم الحق الذي لا ريب فيه نقول لهم بصوت جهير إن عدم محاكمة دنلوب بعد الفضائح التي أعلنها المسيو لامبير معرة كبرى على الاحتلال والمحتلين!

ينسب البعض سكوتهم أمام هذه التهم الصريحة إلى أنهم لا يريدون إرضاء الرأي العام أو الظهور أمامه بمظهر الضعف.

حقا إنها لحجة تضحك، وإنها لسياسة لا ترضاها لنفسها حكومة "بهنزين" أيظن المسيطرون من الإنجليز أن إخراج دنلوب من المعارف أضر بالسياسة الإنجليزية من بقائه!

إننا كنا نعتقد أنهم أذكى وأفطن من أن يقولوا ذلك، وإلا فكيف فاتهم أن بقاء دنلوب هو أكبر وصمة للاحتلال، وأننا لو كنا نريد تحقير الحكم البريطاني في مصر لما طلبنا منهم أكثر من بقاء دنلوب بعد تهم الأستاذ لمبير، أليس بقاؤه أكبر دليل نقدمه للأمة على أنه آن لها أن تترك مدارس الحكومة خاوية لا يقصدها طالب وتؤسس هي مدارس لأبنائها بأموالها وهمم القادرين من رجالها لتنال الاستقلال العلمي والأدبي وتستريح من أعمال دنلوب ومساعيه!

إذا كان الأستاذ لامبير يقرر أن خطة دنلوب هي التي دفعت بطلاب الحقوق إلى صفوف الوطنيين فصاروا في مقدمتها، فكيف لا يدرك الإنجليز أننا لو كنا لا نرمي إلا إلى جمع كافة القوى الحية ضدهم وأن هذه طلبتنا الوحيدة، وأننا لا نريد الخير لبلادنا ولا نطلب الإصلاح، لابتهجنا ببقاء دنلوب عاملا على زيادة الوطنيين المصريين ومجدًّا في بث روح العداء في قلوب الناشئين للانجليز واحتلالهم! إن الأمة المصرية تنظر اليوم بمزيد الاهتمام إلى ما تنوي الوكالة البريطانية عمله مع دنلوب، فإن هي تركته وشأنه علم من لم يكن يعلم في هذا القطر وفي غيره من الأقطار أن العدل خيال في مصر لا حقيقة، وأن الإنجليز يغفرون لرجالهم كل السيئات ويتربصون للمصرين فيعاقبونهم على أصغر صغيرة.

فإذا كانت هذه هي النتيجة التي يعمل لها المعتمد الإنجليزي الجديد فليفعل، فإنما هو يهدم بيمينه البقية الباقية من نفوذ بلاده عند المغرورين الذي لم يسيئوا بها الظن تماما ويقوي عقدة الذين لا يرون في نواياها ومراميها شيئًا من الخير لمصر والمصريين.

محاربة الأكفاء من المصريين

كيف يطالب المصريون بأن يحسنوا الظن بالمحتلين وهؤلاء هم الذين يدعونهم كل يوم إلى إساءة الظن بهم.

كيف يصدق العلماء والفضلاء والأكفاء من المصرين أن الإنجليز يريدون حقيقة لهذه البلاد التقدم والارتقاء وهذا مستر دنلوب يأمر كل مدير لمدرسة عالية بأن يطعن في كفاءة المصريين الذين يطلبون وظائف التدريس!

وإذا تركنا المستر دنلوب وارتقينا إلى رئيسه الأعلى معتمد انجلترا في مصر، فماذا نجد من نياته! نجد أن السير إلدون غورست قد عين المستر هيل مديرًا لمدرسة الحقوق وسخر بذلك من المصريين عامة ومن الأكفاء خاصة.

ألم يقل لهم بلسان الحال: "إني لأسخر من معارفكم وآدابكم وكفاءتكم واستعدادكم وخبرتكم وشهاداتكم لأنكم مصريون وأقدم عليكم من هو دون أصغركم علمًا وفضلا وخبرة لأنه إنجليزي؟"

فهل بعد هذا يطالب المصريون بأن يحسنوا الظن بالإنجليز؟ وهل هناك عداء صريح من قوم لآخرين اكبر من هذا العداء؟ وهل يليق بشرف دولة كبرى كالدولة الإنجليزية أن تحارب المصريين بمثل هذه الصغائر وهي التي أقسمت أمام العالم كله أن جل رغائبها إعداد المصريين لأنه يحكموا أنفسهم بأنفسهم؟

ومتى يتسنى لهم ذلك القاعدة السائدة في السياسة الإنجليزية بمصر، هي تجريد المصريين من كل سلطة، وإبعادهم عن كل منصب ذي عمل، والاستعانة بالضعفاء والمارقين منهم على تمثيل مصر في المناصب التي يشغلونها بأسوأ صورة.

obeikandl.com

دنشواي

يقول سير إدوارد غراي بأعلى صوته في مجلس العموم الإنجليزي إن لورد كرومر لم يعامل المصريين كأمة منحطة، فماذا كان يريد أن يعمل اللورد ليعترف بأنه عاملهم كذلك؟

أليست دنشواي وحدها بكافة لأن تثبت مدى الدهور والأجيال أن الإنجليز أهانوا المصريين إهانة قاسية لا تنسى أبدًا، ولا يمكن اختلاف اثنين من المنصفين في الحكم عليها؟

ينادي الساسة الإنجليز بأن الحكم في دنشواي كان سياسيًا وكان يقصد به تأديب الأمة، وإذا طلبت الجماهير العفو عن المسجونين بسبب هذه الحادثة قالوا: "إنما أنتم تطلبون العفو لتعدوه انتصارًا على السياسة الإنجليزية".

فهل هذا هو العدل الذي تجود به علينا المدنية البريطانية؟ هل هذا هو الإنصاف الذي تريد أن تعلمنا إياه الدولة الإنجليزية؟ أيعاقب أهالي دنشواي بتلك الشدة المتناهية لأن الأمة لم تكن مع الإنجليز في حادثة العقبة، وهل الحكومة التي تخلط بين السياسة والعدل إلى هذا الحد متعاقب البريء وتكافئ المجرم تستحق أن يمدحها مادح ويثني عليها إنسان؟ وكيف يدهشها قيام المعارضين في وجهها واعتراضهم عليها بكل شدة وقوة؟

إننا لو كنا نريد دوام العداء والنفور واستحكام الشقاق والتنازع لطلبنا بقاء مسجوني دنشواي في سجونهم الأعوام الطوال، لأنه كلما مرت السنون وهم على حالهم تجددت الآن الأمة بما لا يكيف، وجرى ذكر دنشواي على كل لسان، وهكذا سياسة العناد لا تثمر إلا عكس المقصود منها ولا تؤدي إلا إلى ضد الغاية المطلوبة.

إن الرجال لا يحكمون بمثل هذه السياسة ولا تدبر شؤونهم بثمل هذا الاعتساف. إذا كان الإنجليز يجهلون أحوال المصريين وما يدور بينهم، فيعلموا أن في هذه الأمة رجالاً مستنيرين رشيدين يعادلون أكفأ العقلاء من الإنجليز وأنهم يغارون على الحق والعدل ولا يرضون بأن تكون الأحكام في البلاد قائمة على الغايات والأهواء، وهؤلاء الرجال هم القوة المفكرة التي تحترمها كل حكومة في العالم وتسترشد بآرائها في المواقف الحرجة.

إننا نقدم العدل والرحمة على السياسة، ولذلك طلبنا ونطلب بأعلى أصواتنا العفو عن مسجوني دنشواي، ونقول بكل صراحة إن السياسة الرشيدة هي التي تعمل لتخفف الآلام الناشئة من هذه الحادثة الموجعة، لا العمل على تقويتها وزيادتها بدعوى أن طلاب العفو ليسوا من أنصار الاحتلال!

obeikandl.com

ألا فاقرأوا معاشر الإنجليز التاريخ الإسلامي وانظروا في أعمال أولئك الخلفاء العظماء الذين كان الواحد منهم ينشد الحقيقة في كل وقت وفي كل مكان ويمتثل للحق ولو كان قائله من أحقر الناس.

فخليق بالإنجليز وهم الذين يدعون أمن مدنيتهم سادت كل مدنية أن يذكروا أن رجال المدنية الإسلامية لم يكونوا ليقولوا " "السياسة فوق الحق"، بل كانوا يقولون ويؤيدون هذا القول بألف دليل ودليل: الحق فوق كل شيء.

الثروة والأزمة

أيها السادة، يفاخرنا الإنجليز على الدوام بأنهم أغنوا البلاد وملأوها ذهبًا حتى حدثت الأزمة الأخيرة وخفت هذا الصوت الذي صمت من سماعه الآذان أعوامًا طوالاً.

فما قيمة الثروة التي يفاخرون بها بجانب الحرية الشخصية والعمومية وسيادة المصري في بلاده واستقلاله في وطنه؟ ومن من المصريين لا يفضل أن يكون أفقر الناس جميعًا وحكومة بلاده قائمة على العدل الصحيح على أن يكون أغناهم وأثراهم ويهدد من المحتلين بعقوبات دنشواي؟

وإذا كان من المسلم أن ارتفاع أثمان أراضي الزراعة تابع لثمن القطن، وأن هذا خاضع لطلبات العالم ولحاجة الناس للقطن المصري بنوع خاص ولقلة المحصول الأمريكي وللمضاربة، فما أثر الإنجليز في هذه الثروة؟

لاشك أنه جرت إصلاحات جمة في الريّ وأن الأعمال التي بدئ بها في عهد الخديويين السابقين تقدمت في العهد الحاضر، ولكن هذا الإصلاح في الري ليس مزية خاصة للحكم البريطاني، ثم ألم يكن هذا من فائدة الإنجليز أكثر مما هو في فائدتنا؟ ألم يكن من مصلحتهم إرضاء دائني مصر وفتح السودان و إصلاحه بأموال مصر.

من الذي ينكر اليوم أن الأزمة المالية الحاضرة ناشئة عن فوضي البورصة وعن كثرة الشركات التي دبرتها اليد التي قيدت الشركات المؤسسة بمقتضى القانون المصري بقيود جمة لإيجاد أسهم للتأسيس حتى تؤسس الشركات كلها بمقتضى القانون الإنجليزي.

من الذي ينكر أنه كان في استطاعة الإنجليز أن يطلبوا من الدول وضع قانون للبورصة ويقيدوا السماسرة والشركات بقيود متينة صيانة لمصالح البلاد.

وأي خلل في المالية المصرية أكبر من الذي فضحه المستشار المالي السابق نفسه حين أعلن أن مصر خسرت ٧٠٠٠٠ جنيه في كل مليون اشترت به أسهم الترنسفال أو القونصليد

الإنجليزي، فهل كانت تجري هذه الأمور كلها لو كان للأمة مجلس نيابي يراقب أعمال الحكومة وكانت الحكومة مؤلفة من عناصر أهلية وليس للأجنبي عليها سيطرة؟ ومن ذا الذي يتغنى بعد الآن بالإصلاح المالي البريطاني في هذا القطر.

إن الذي يفاخر بزيادة الثروة وبوصول مالية الحكومة المصرية إلى مركز سام يجب عليه قبل كل شيء أن يعدد الأعمال العامة والمنافع المختلفة التي عادت على القطر من هذه الزيادة.

فهل يستطيع الإنجليز أن يدعوا أنهم رقوا الفلاحين "أصحاب الجلاليب الزرقاء"، ونشروا أنوار المعارف بينهم وهم الذين سدوا أبواب المدارس في وجههم وقالوا لهم: "حكمنا على أولادكم بأن يكونوا فقراء تعسين وأن لا يتسلحوا أبدًا بسلاح العلم".

هل من مفاخر العهد البريطاني أن ينفق على المجانية ابتداء من هذا العام ١٦٠٠ جنيه ليس إلا، وميزانية الحكومة بلغت خمسة عشر مليونًا من الجنيهات على حين أن التعليم كان مجانًا في كافة مدارس مصر يوم لم تكن ميزانية الحكومة تزيد عن الملونين؟

هل يقدر الإنجليزي أن يدعوا أنهم أصلحوا الحالة الصحية في البلاد وغيروا من معيشة الأهالي وأن مدينة العاصمة صارت نظيفة فاخرة لا يجد المتنقل فيها محلاً للانتقاد في فصل من فصول السنة؟ هل لهم أن يدعوا أنهم حموا الأطفال من الأمراض المختلفة التي تقتلهم مئات وألوفا؟

فما فائدة الأموال التي تجمع والخزينة التي تملأ بالذهب الوهاج إذا كانت الأسوار قائمة بين الفقراء والعلم، والأحوال الصحية على أسوأ حال، والعدل مزعزع الأركان، والمصري لا يملك في بلاده نفوذًا، ولا يسمع له صوت، و الأمن مختلف أي اختلال؟

الأمن العام

دعا الإنجليز حب نزع السلطة من المصريين إلى تدمير الإرادة المصرية تدميرًا حقيقيًا بإحلال سلطة المفتش محل سلطة المدير، فصار الأشقياء لا يخافون الحكومة لأن قوتها الحقيقية تلاشت من أمامهم، وصرنا نسمع بحوادث القتل والفتك في كل بلد، مما أذهل الناس جميعًا، وقد اضطرب المحتلون في التشريع اضطرابًا عجيبًا، فتراهم يغيرون القوانين ويقبلون المبادئ التشريعية بسرعة فائقة كأنهم يبدلون في مواد لائحة من لوائح البوليس والمخالفات لا في قوانين أساسية يساس بها شعب كبير، وهم اليوم يطلبون تقرير النفي الإداري الأمر الذي اسخط الأمة كلها وأظهر فشلهم الفاضح.

وهذا خلل كبير في إدارة شئون مصر، فإن كل بلاد حرمت قوة تشريعية حقيقية تكون خاضعة لسياسة الأهواء.

الحكومة الأهلية

لذلك قلنا أن المصريين لا يرضون بإصلاحات سطحية يعطونها ذرًا للرماد في العيون، بل إنهم لا يطمئنون على أنفسهم وبلادهم إلا إذا عادت الحكومة الأهلية بسلطاتها وسطوتها ورهبتها وكانت الحكومة دستورية خاضعة لمبادئ التمدن الحديث ومستمدة قوتها من الشعب وعاملة برغائبه ممتثلة لأوامره.

وإذا كان بعض الإنجليز يرون أن ما عمل في مصر في الخمسة والعشرين عامًا الأخيرة كافيًا لتشريف انجلترا ولائقًا بمدنيتها وبما ينتظر منها، فإننا نعتقد أن انجلترا قادرة على أن تعمل أحسن مما عملت وتحترم شرفها وعهودها وتاريخها وتقاليدها بخطة أخرى غير الخطة التي اتبعتها.

إن الإنجليز الذين يتألمون لمطالبتنا باحترام تعهدات الملكة فيكتوريا وتصريحات كبار وزرائها ينسون أن مخالفة هذه التعهدات وتلك التصريحات أشد إيلامًا لهم في الحقيقة من كل انتقاد يوجه إليهم، وأن الذي يدعوهم لإتباع سياسة العدل والمدنية إنا يدعوهم لما هو أليق بهم وبشرف دولتهم وعظمتهم.

كيف لا ومطاعن الطاعنين وشتائم الشاتمين لا تؤثر في شرف انجلترا وسمعتها عشر معاشر ما يؤثر قول العالم المتمدن عنها إنها تعادي الوطنيين المصريين وتحاربهم لأنهم يطلبون إتباع مبادئ الوطنية وتعميم التعليم وإقامة الدستور مقام الظلم والاعتساف– وينادي بأنهم لا يرضون بحكومة الرجل الفرد سواء كان مصريًا أو أجنبيًا، وأن مداركهم ارتقت إلى حد أنهم يعتبرون أنهم من عائلة الشعوب المتمدنة، ويطلبون أن يعاملوا كذلك.

لذلك كان من المؤكد ندنا نجاحنا عاجلاً أو آجلاً، لأن الزمان يكفل النجاح لصاحب الحق على الدوام!

أعداء الحزب الوطني والنزلاء

هذه خطتنا أيها السادة وهذه مطالبنا التي نرمي إلى تحقيقها، فهل يقول منصف عادل بأنها غير موافقة لصالح مصر والمصريين.

كلا، ولكن عصابة الكتاب الأوروبيين في هذه الديار حملت علينا حملة شعواء، ووجهت إلينا من السباب ما لا يتصور صدوره من رجال متمدنين، ورمتنا هذه العصابة بتهم شنيعة لو كان لها نصيب من الحقيقة لكنا من المجرمين.

ولقد يتوهم البعض منا أن هؤلاء الكتاب يعبرون عن أفكار النزلاء الأوروبيين في هذه الديار ونزعاتهم، ولكن هذا الوهم باطل، لأن أولئك النزلاء يحبون مصر على ما أعتقد، ويعترفون لها بالجميل ويرجون لها الخير ولا ينسون أنها البلاد التي لا قوا فيها لإكرام التام والحفاوة الزائدة ووجدوا تحت سمائها ما يطلبون من كسب عميم وخير وفير.

إن النزلاء الأوروبيين يقدرون الوطنية حق قدرها لأنهم يحبون بلادهم حبًا جمًا ويظهرون هذا الحب في كل آن، فمن منا يصدق أن أولئك الذين يعيشون وفخارهم استقلال أوطانهم ويعتقد الواحد أنه راية بلاده يمثلها أني كان وأن الاعتداء عليه اعتداء عليها يجاهدون ضد أمة تنهض مطالبة بالاستقلال وتعمل على زوال الاحتلال!

إني أعتقد اعتقادًا جازمًا أن لنا في النزلاء الأوروبيين أصدقاء عديدين وأن عدد أولئك الأصدقاء يزداد كلما أثبتنا لهم بالدليل والبرهان أننا نريد أن تكون مصر عضوًا عاملاً في جسم الأمم المتمدنة، وأننا نطلب الاستقلال لتكون بلادنا مصدر النور والعرفان في الشرق كله، وأننا لا نريد مطاردة أحد من الناس، بل نعد من شرف مصر وامتيازها على غيرها من البلاد أنها ترحب بكل قادم إليها وتوسع له في ديارها غير خائفة على أبنائها من مزاحمة أو منافسة بل مسرورة بكثرة العاملين وهمم الساعين المجدين.

تهمة الثورة

بماذا طعن الطاعنون فينا:

قالوا إننا نريد إحداث ثورة دينية في البلاد وأنه أوعز إلينا من الأستانة بها. وهو قول الجاهل أو المتجاهل المتعنت الذي يريد أن يحارب خصومه بكل سلاح، إذ كيف يقبل العقل السليم أو يتصور إنسان ذو لب وإدراك إن قادة الأفكار في مصر يعملون لهدم البقية الباقية من استقلال هذه البلاد ويحزبون أوروبا بأسرها على مصر والمصريين، ألم نقل مراراً وتكرارًا إن كل

فتنة تحدث في مصر لا تفيد إلا المحتلين؟ ألم نكن أول الداعين للسكينة المطالبين أبناء وطننا بأن يعملوا بعزم وهمة وصراحة ولكن مع السكينة والمحافظة على الأمن العام، ألم نجعل أساس سياستنا وقاعدة خطتنا وروح أعمالنا استخدام الوسائل السلمية لنيل حقوقنا والتمسك بالطرق القانونية دون غيرها؟.

ومن الذي يستطيع أن يقول إن للأستانة منفعة في إحداث ثورة في مصر؟ وما الذي يدفعها إلى ذلك؟ أعداوتها للمسحيين وأسمى وظائف الدولة في قبضتهم؟ وماذا يكون مركز الدولة العلية لو ثارت مصر وضربتها أوروبا الضربة القاضية؟ ألا تكون هي المسئولة بالذات عن ذلك إذا صحت أنها تحرض على ثورة فيها؟ أو ليس التحريض داعيًا إلى المؤازرة؟ فأي مؤازرة ترضى تركيا أن تقوم لنا بها على أوروبا كلها؟

إن القائلين بذلك أعداء متعنتون أو وجهلاء لا يدركون معنى ما يقولون، لأن المصري الذي يدعو إلى فتنة أو يعمل لها يكون عدوًا لبلاده، وإذا وجد في العالم دولة تنصح للمصرين باستعمال السكينة وملازمة الحكمة والتبصر فهي الدولة العلية، لأنها بلا نزاع أشد الدول غيرة على سلامة مصر وأكثرهن فائدة من عدم ازدياد مصائبها وبلاياها.

تهمة خيانة مصر

رمانا الطاعنون أيضًا بأننا نريد أن نخرج الإنجليزي من مصر لنعطيها لتركيا كولاية عادية، أي أننا نريد تغيير الحاكمين لا طلب الاستقلال والحكم الذاتي.

وما هذه التهمة إلا تصريح بأن علوم الغرب وآدابه التي نقلت إلى مصر من مدة قرن من الزمان ما زادتنا إلا تمسكا بالعبودية والمذلة، وأن معرفتنا لحقوق الأمم وواجباتها لم ترشحنا إلا أن نكون عبيدًا أرقاء.

فهذه التهمة هي مسبة للمدنية والمتمدنين وقضاء على الأمة المصرية بأنها لا ترقى أبدًا ولا تبلغ مبلغ غيرها من الشعوب، لأنه إذا كان المتعلمون من أبنائها يطلبون إحلال نثير محل نير واستبدال استعباد باستعباد فكيف يطمع طامع في تقدمها وارتقائها ووجود ضمير أهلي لها؟

إن القائلين بذلك يدعون الناس لأن يسخروا من عقولهم ومداركهم لأن الصومالي والحبشي وكافة الأمم التي هي دون الأمة المصرية بمراحل في العلم والأدب والشعور دافعت عن استقلالها أجمل دفاع وبرهنت للعالم طرا أن حب الوطن فطرة فطر الناس عليها وأن الإنسان لا يحتاج إلى علم ولا إلى أدب ليشعر بهذا الشعور.

فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا، وعلى مسمع من أمم الأرض كلها، وأننا إذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فإنما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون.

وإذا كانت إنجلترا تسعى الآن للتقرب من الدولة العلية وتغير سياستها نحوها تغييرًا محسوسًا، فمن الذي يلوم المصريين على أن يكونوا أقرب الناس من تركيا قولا وفعلاً وأن يحافظوا على هذه الصلة ما استطاعوا؟

تهمة التضيّيق في الوطنية

قال أعداؤنا فيما قالوا: إننا ضيقو الفكر صغار الآمال، وإننا نأبى على الذين ولدوا في مصر واستوطنوها أن يكونوا مصريين، وهذا قول لا يقوم عليه برهان.

إننا إذا قاومنا بكل قوانا تلك الفئة التي قابلت إحسان مصر بالنكران وأعلنت على البلاد وأهلها حربا عوانا فإننا نميز بينها وبين بقية الشرقيين من ترك وعرب وسوريين الذين اختاروا مصر وطنا لهم،أحبوها وشاركونا في الآلام والآمال وصاروا مصريين فعلاً.

إننا نستقبل بمزيد السرور والانشراح كل راغب في الدخول في جنسيتنا، معترف بحقوقنا، مقدر لشرف جهادنا، عامل على بلوغ الاستقلال، لأننا نريد زيادة قوى الوطن والاستزادة من الأيدي العاملة لخيره ولنفعه ومجده وعظمته.

وإن الأمم التي تخاف دخول الغريب فيها وانتماءه إليها هي الأمم الضعيفة في وطنيتها، المضطرب فؤادها على جامعتها، ونحن اليوم بمحمد الله أمة قوية الشعور وراقية الإحساس لا تخاف على وطنيتها،فليدخل في الجنسية المصرية من أراد فإنه إن لم يزدها قوة زادته هي حمية وإقدامًا، وملأت قلبه بحب الحرية والاستقلال.

تهمة التعصب الديني

قال أعداؤنا أيضًا: إننا نخلط الإسلام بالوطنية، ونتكلم دائمًا عن المسلمين ونطلب إدخال الدين في التعليم، وفسروا ذلك بأنه تعصب ذميم.

فكيف لا تكون انجلترا وألمانيا متعصبتين وهما الدولتان المتمسكتان بالتعليم الديني في مدارسهما ونتهم نحن بالتعصب الديني؟ لماذا يكون الإنجليزي وطنيًا وبروتستانتيًا في آن واحد ولا يكون المصري المسلم وطنيًا ومسلمًا؟ ألا تكون الوطنية صحيحة سليمة إلا إذا قضت على الدين ومحبته؟

ألا إن الحقيقة الساطعة التي لا ريب فيها هي أن الوطنية والدين متفقان بل وقد يكونان متلازمين.

نحن إذا طلبنا إرشاد أمتنا إلى الحقيقة الدينية، فما ذلك إلا لأن الأضاليل والأكاذيب والخزعبلات التي راجت بين العامة باسم الدين قلبت حقيقة هذا الدين، فصار الجهل والتأخر والانحطاط وكل الآفات مما يلقى على الدين وينسب إليه والدين منه براء.

لذلك كان من المستحيل إحياء الأمة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية، لأنه لا سبيل لإبادة جيش الباطل الذي ألف ونظم باسم الدين إلا بالدين نفسه.

فالتعليم الديني ليس فرضًا من الوجهة الدينية فحسب، بل هو كذلك أيضًا من الوجهة الوطنية، لأنه لو وقف المرشد أمام الأهالي ونبههم إلى واجباتهم باسم الوطن والعلم والمصلحة وأجابه الضالون منهم بما عندهم من الاعتقادات الباطلة بأن الدين ينافي ما يقول لما قهرهم واستماله إلى فكره إلا إذا اثبت لهم أن الدين ليس ما اعتقدوا بل إن الدين مخالف لتلك الخزعبلات التي آمنوا بها وأنه متفق مع العلم والوطن تمام الاتفاق.

على أن بث الحقيقة الإسلامية بين المسلمين من أكبر الأسباب الموجدة للتسامح والتقرب من الشعوب الأخرى، إذ لا تعصب مع علم ولا نفرة مع نور ورشاد، فمن منفعة العناصر كلها أن يعرف المسلمون دينهم على حقيقته وأن تزول أوباء الجهالات والخرافات من بينهم.

تهمة تحريض المسلمين على الدول

لم يكتف الطاعنون فينا بنسبة التهم المتقدمة إلينا بل قالوا إن الحزب الوطني آلة في يد ألمانيا تحركها ضد فرنسا وإنجلترا لإحداث فتنة في البلاد الإسلامية التابعة لهما، وما قصدوا بهذه التهمة إلا جمع كلمة الدولتين ضدنا وتنفير أصدقائنا العديدين في أوروبا منا.

إننا نعلن للملأ كله أن الحزب الوطني مستقل عن كل الدول والحكومات والملوك والأمراء. وأنه إنما طلب سعادة مصر واستقلالها من كل طريق يجده مساعدًا على الوصول إلى الغاية، وليس هناك برهان على إفك أعدائنا أكبر واقطع من أننا انتقدنا السياسة الألمانية مرارًا وقلنا لها إن المسلمين لا يصدقون بمحبتها إلا إذا غيرت خطتها في مصر وطلبت حل المسألة المصرية في مؤتمر دولي كما فعلت بشأن مراكش، وشتان ما بين مصر ومراكش في الأهمية ووفرة المصالح الأوروبية.

إن المسلمين يخدعون أنفسهم كثيرًا ويسيئون إلى بلادهم حقيقة إذا اعتقدوا أن سلامتهم في الاعتماد على دولة من الدول، وأن لهم أن يناموا على وسادة الأمان والاطمئنان إذا جاملتهم هذه الدولة بكلمة حب وانعطاف لغاية يجهلونها.

إنما سلامتهم في أني عملوا بأنفسهم لصيانة بلادهم وحمايتها بالعلم والعدل والنظام والدستور. فإن البلاء في أن يكون الإسلام سلاحًا بيد الجاهل الغبي يقتل باسمه البريء من المسلمين وغير المسلمين ويخرب البلاد ويؤذي العباد قائلاً: "إن هذا من عمل الإسلام".

إن الإسلام برئي من هذه الفظائع، إن الإسلام يقضي بكل قوة على هذه القبائح، الإسلام والجهل عدوان لا يتفقان، فلا إسلام بغير علم وفضل وعدل ومدنية وإنسانية، فلترفع الأمم الإسلامية التي لا تزال قادرة على حماية بلادها وصيانة استقلالها رايته، ولتعمل على اليابان فتعتمد على الجد وحده وتطلب الحياة والسؤدد من جهودها ومساعيها لا من تعضيد دولة ورعاية حكومة أجنبية.

فإن السياسة التي تدفع بهذه الحكومة لمساعدة أمة إسلامية في ساعة من ساعات حياتها قد تتغير بتغير الظروف والأحوال فلا تساعدها في ساعة أخرى.

وإنه خير لمرشدي المسلمين والناصحين لهم أن يحملوا على أسباب الفشل والسقوط التي نشأت بينهم ويحاربوا الجهلاء والأغبياء منهم قبل توجيه الملازم إلى المهاجمين عليهم، فإنما الجهل هو الذي دعا الأجنبي لأن يطمع فيهم، ولو نظم المسلمون بلادهم وأثبتوا للعالم أن الإسلام دين مدنية وعمران وقوة ورفعة، لما اعتدى عليه أحد ولخطب ودهم كل إنسان.

الاتحاد والعمل

أيها السادة، دعا لورد كرومر قبل سفره كافة العناصر الأجنبية للاتحاد ضد المصريين تنفيذًا لسياسة التفريق التي عمل لها طول حياته، فاسمحوا لي أن أدعوكم للاتفاق والاتحاد وإزالة كل سبب للنفور والشقاق بنيكم وبين النزلاء، فإن الاتحاد هو القوة الكبرى، ولولاه ما قام الشعب في العالم وما وجد التضامن بين أفراد الهيئة الاجتماعية.

إنه ليحزنكم كثيرًا أن تجدوا المنافقين والخائنين من أبناء البلاد، وهو حال يحزن ولكنه ليس خاصًا بمصر، بل هو عام في الدنيا كلها، وإذا أحزن الوطنيين الصادقين من جهة فإنه يسرهم من جهة أخرى، لأنه يبعد العناصر الفاسدة من الحركة الوطنية ويجعلها طاهرة خالصة من كل شائبة.

فضموا صفوفكم وأجمعوا أمركم واعملوا بجد وهمة واثبتوا للأعداء والأصدقاء أننا أحق الأمم بالدستور والاستقلال، إن الوطنية الحقة تقصي على صاحبها بأن يضحى حياته خدمة لوطنه لو دعت الحاجة لذلك، فلنصحّ جميعًا أحقادنا الذاتية وخصوماتنا الشخصية، ولننس عداواتنا واختلافاتنا أمام المصلحة الوطنية وأمام الوطن المقدس، لننس أشخاصنا ولنترك الطمع في الزعامات والرئاسات ونتبع أحفرنا إذا كان على الحق، فإننا إذا نصرناه نصرنا الوطن والأمة، وإذا خذلناه خذلناهما معًا

أيها السادة! إن العالم ينظر إلى مصر وما سيكون من أمر حركتها الوطنية وإن أعداؤنا يدبرون ألف تدبير لهدم دعائم هذه الحركة ومحو آثارها.

فاذكروا ذلك على الدوام ليزداد الاتفاق بيننا وليوجد الإخاء بأسمى معانية بين صفوفنا.

إني لأدعو كل واحد منكم للدخول في الحزب الوطني، حتى تتسع دائرة العمل لخدمة مصر، ويزداد الطالبون للاستقلال، الممثلون للأمة في همتها ونخوتها واجتماع كلمتها، العاملون على إنالتها شرف الأحياء ومجد الراقين!

obeikandl.com

فهرست الكتاب

صورة المؤلف ٣

صورة مصطفى كامل ٥

إهداء الكتاب ٦

تقديم الكتاب ٧

مقدمة الطبعة الرابعة ١١

مقدمة الطبعة الخامسة ١٢

مقدمة الطبعة الثالثة ١٣

مقدمة الطبعة الثانية ١٥

مقدمة الطبعة الأولى ١٨

أقسام الكتاب ٢٢

الفصل الأول

نشأة الفقيد والعصر الذي ظهر فيه

نشأته العائلية ٢٤

والد المترجم ٢٥

والدة المترجم ٢٧

obeikandi.com

نشأة الفقيد المدرسية ٢٧

وفاة والده ٢٨

حصوله على الشهادة الابتدائية ٢٨

في المدرسة الثانوية ٢٨

في مدرسة الحقوق ٢٩

نشأته الأخلاقية ٢٩

نشأته الوطنية ٣١

العصر الذي ظهر فيه مصطفى كامل ٣٤

الفصل الثاني

المرحلة الأولى من الجهاد

في المدرسة الثانوية وفي مدرسة الحقوق

إنشاء مجلة المدرسة ٤٠

اتصاله بعبد الله نديم ٤١

سفره إلى باريس لأداء امتحان الحقوق ٤٣

رواية فتح (الأندلس) ٤٤

امتحان السنة الثانية ٤٤

حصوله على شهادة الحقوق ٤٥

obeikandl.com

الفصل الثالث

المرحلة الثانية من الجهاد

بعد نيله شهادة الحقوق

شعوره بواجبه نحو مصر ٤٧

حديثه في جريدة (جازيت دي تولوز)..... ٤٧

جهاده بعد عودته إلى مصر ٤٩

دراسته المسألة المصرية..... ٤٩

الفصل الرابع

جهاده سنة ١٨٩٥

حديثه مع الكولونل بارنج..... ٥٢

نشر الدعوة الوطنية..... ٥٢

احتجاجه على تأليف المحكمة المخصوصة ٥٣

حضور النائب الفرنسي دلونكل ٥٣

سفر المترجم إلى باريس ودعايته للقضية المصرية في أوروبا ٥٤

نداؤه إلى مجلس نواب فرنسا..... ٥٦

حديثه في جريدة الجورنال ٥٩

خطبته في تولوز (أول خطبة سياسية له في أوروبا)..... ٦١

obeikandi.com

في فيينا ٦٢

رسالته في أخطار الاحتلال البريطاني ٦٢

أحرار في بلادنا، كرماء لضيوفنا..... ٦٣

تعرفه إلى مدام جولييت آدم..... ٦٣

حديثه في جريدة (الإكلير) الفرنسية ٦٧

خطبته في الجمعية الجغرافية بباريس..... ٦٨

الفصل الخامس

جهاده سنة ١٨٩٦

خطابه إلى جلادستون في شأن الجلاء..... ٧٠

رد جلادستون ٧١

خطابه الثاني إلى جلادستون ٧٣

عودته إلى مصر..... ٧٤

كتابه إلى مدام آدم ٧٤

أول خطبة وطنية له بالإسكندرية..... ٧٥

هدية الثغر إلى المترجم..... ٧٦

برهان الإخلاص من أهالي الإسكندرية (للوطني الغيور مصطفى كامل)..... ٧٦

كتاب المترجم إلى أهالي الإسكندرية ٧٧

obeikandi.com

اضطهاد الإنجليز شقيقه..... ٧٨

خطبته بالفرنسية في الإسكندرية..... ٧٩

مجموعة أعمال المترجم في عام..... ٨٠

استئناف الجهاد في أوروبا..... ٨٢

ذكرى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ..... ٨٢

خطاب ثالث إلى جلادستون..... ٨٤

رد جلادستون..... ٨٥

دعايته في ألمانيا..... ٨٦

في النمسا..... ٨٧

ذهابه إلى الأستانة..... ٩٠

عودته إلى مصر..... ٩٤

مكيدة للمترجم – الشروع في تجنيده..... ٩٤

الفصل السادس

جهاده سنة ١٨٩٧

مرضه ثم إبلاله..... ٩٧

نداؤه إلى ألمانيا..... ٩٧

رحلته في أوروبا ٩٨

obeikandl.com

حديثه مع الدكتور رزنر ١٠٠
وليمة المترجم في فيينا ١٠١
رحلته إلى بودابست ١٠٢
في برلين ١٠٢
في باريس ١٠٣
عودته إلى مصر..... ١٠٣
اقتراحه على تركيا اشتراط الجلاء عن مصر مقابل الجلاء عن اليونان ١٠٤
خطبته في الإسكندرية..... ١٠٥
سفره إلى أوروبا ١٠٨
ذكرى ضرب الإسكندرية..... ١٠٨
صدى جهاده في أمريكا ١٠٩
في فيينا وباريس ١١١
خطبته بباريس ١١١
الدعوة إلى الجهاد الوطني ١١٢
الشباب والشيوخ في الجهاد ١١٢
الإشادة بالوطنية ١١٢
محاربة اليأس ١١٣

obeikandl.com

الوطنية والحياة في أوروبا ١١٣

سفره إلى برلين ثم عودته إلى باريس ١١٤

اعتزازه بمصريته ١١٤

عودته إلى مصر ومرضه ١١٦

الفصل السابع

حادثة فاشودة وجهاد الفقيد سنة ١٨٩٨

خطبته في حديقة الأزبكية ١١٨

تمجيد الوطنية ١١٩

الوطنية والمال ١١٩

الدعوة إلى الحياة الحرة..... ١٢٠

الرد على الحملات الاحتلالية..... ١٢٠

ظهور كتابه عن المسألة الشرقية..... ١٢١

جهاده في أوروبا ١٢١

حادثة فاشودة وتأثيرها في الحركة الوطنية ١٢٣

ثبات مصطفى كامل في الجهاد ١٢٦

(خطاب الفقيد إلى فريد بك في ٩ أغسطس سنة ١٨٩٨). ١٢٨

خطاب الفقيد إلى فريد بك ٤ سبتمبر سنة ١٨٩٨ ..... ١٣٠

obeikandi.com

خطبته بالقاهرة ١٣١

الفصل الثامن

جهاده سنة ١٨٩٩

اتفاقية السودان ١٣٣

نص اتفاقية السودان ١٣٦

دعوته إلى نشر التعليم القومي ١٤٣

إنشاء مدرسة مصطفى كامل ١٤٣

سفره إلى أوروبا ١٤٥

الإنعام عليه برتبة المتمايز ١٤٥

عودته إلى مصر ١٤٥

خطبته بالقاهرة ١٤٥

الفصل التاسع

ظهور اللواء – والجهاد الأكبر

ظهور اللواء سنة ١٩٠٠ ..... ١٤٧

خطبة الفقيد بالإسكندرية ١٥٠

سفره على أوروبا ١٥١

دعوة الأمة إلى الاعتماد على نفسها ١٥٢

obeikandi.com

دعوته إلى إحياء الصناعة..... ١٥٣
إحياء ذكرى الرجال العاملين..... ١٥٣
خطبته في افتتاح مدرسة الشوربجي في باريس ١٥٤
احتفال مدرسة مصطفى كامل برئاسة الأمير محمد إبراهيم..... ١٥٧
محاربة اليأس والثقة في الأمة ١٥٧
الثقافة الوطنية ١٥٨
خطبة الأمير محمد إبراهيم ١٦٠
الاحتفال بالعيد المئيني لمحمد علي..... ١٦١
وصف الخطبة وتأثيرها..... ١٦٣
دعوته إلى الدستور..... ١٦٥
مجيء مدام آدم إلى مصر ١٦٧
الإنعام على الفقيد بالباشوية ١٦٩

الفصل العاشر

الاتفاق الودي بين فرنسا وانجلترا

إبرام الاتفاق سنة ١٩٠٤ ..... ١٧٢
تأثير الاتفاق على مصر ١٧٢
أثر الاتفاق في نفس المترجم..... ١٧٢

obeikandi.com

خطبة رياض باشا في احتفال مدرسة محمد علي الصناعية ١٧٣

خطبة الفقيد بالإسكندرية..... ١٧٥

التضحية والثبات..... ١٧٦

الوطنية لا تنثني أمام العقبات ١٧٧

الاستقلال والاحتلال..... ١٧٧

سياسة الاحتلال..... ١٧٨

الوطنية والجهاد والدعوة إلى الاتحاد..... ١٧٨

ظهور كتابه عن اليابان ١٨٠

الاحتفال بعرض الجيش الإنجليزي بميدان عابدين ١٨٠

زيارات اللورد كرومر للأقاليم..... ١٨١

تقارير اللورد كرومر..... ١٨٣

تعيين ياور إنجليزي للخديو ١٨٣

ظهور كتاب (المصريون والانجليز)..... ١٨٣

الفصل الحادي عشر

نادي المدارس العليا وتطور الأفكار سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٦

التفكير في إنشاء النادي..... ١٨٧

أول جمعية عمومية للنادي ١٨٨

obeikandi.com

افتتاحه ١٩٠

إضراب طلبة الحقوق..... ١٩٢

حادثة العقبة (مايو سنة ١٩٠٦)..... ١٩٤

زيادة جيش الاحتلال ١٩٥

الفصل الثاني عشر

حادثة دنشواي

تفاصيل الحادثة..... ١٩٧

المحاكمة ١٩٩

الحكم..... ٢٠٠

كيف قوبل الحكم..... ٢٠١

تنفيذ الحكم ٢٠١

مصطفى كامل وحادثة دنشواي ٢٠٤

إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن..... ٢٠٦

مصطفى كامل في لندن..... ٢١٣

حديثه في جريدة الديلي كرونكل ٢١٤

احتفال الشرقيين بالفقيد في لندن ٢١٥

خطبة السهروردي..... ٢١٦

obeikandl.com

خطبة صاحب الترجمة ٢١٦

وليمة (كارلتون) وخطبة المترجم ٢١٨

الاستقلال والمال ٢١٨

السودان ٢١٩

الامتيازات الأجنبية ٢٢٠

الدستور وحقوق المصريين ٢٢٠

مغادرته لندن وسفره إلى فيشي ٢٢٢

عودته إلى مصر ٢٢٢

(خطاب الفقيد إلى فريد بك ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦) ٢٢٥

نتائج حادثة دنشواي ٢٣٠

١ – اشتداد ساعد الحركة الوطنية ٢٣٠

٢ – اهتمام الصحف العالمية بالمسألة المصرية ٢٣١

٣ – تغيير سياسة الاحتلال ٢٣١

٤ – تأسيس الجامعة المصرية ٢٣١

٥ – تعيين سعد زغلول باشا وزير للمعارف ٢٣٣

٦ – استقالة اللورد كرومر (أبريل سنة ١٩٠٧) ٢٣٣

الاتحاد ٢٣٥

obeikandi.com

الفصل الثالث عشر

جهاد الفقيد عام ١٩٠٧

ظهور ليتندار اجبسيان وذي اجبشيان ستاندرد ٢٣٧

خطبتان لصاحب اللواء..... ٢٣٨

الأمل..... ٢٣٩

الاتحاد ٢٣٩

حفلة تكريم اللورد كرومر وخطبته ٢٤٠

تعيين المستر هيل ناظرًا لمدرسة الحقوق ٢٤١

كتاب المترجم إلى السير هنري كامل بانرمان..... ٢٤٥

عظم منزلة الفقيد..... ٢٤٨

الفصل الرابع عشر

تأسيس الحزب الوطني

(حزب الجلاء)

تاريخ الحزب الوطني..... ٢٥٣

خطبته الكبرى بالإسكندرية..... ٢٥٣

وصف الاجتماع وتأثير الخطبة..... ٢٥٤

أول جمعية عمومية للحزب الوطني ٢٥٦

obeikandl.com

خطبة الفقيد في الجمعية العمومية ٢٥٦

أول لجنة إدارية للحزب الوطني..... ٢٥٨

الإفراج عن مسجوني دنشواي..... ٢٥٨

الفصل الخامس عشر

القضاء المحتوم

مرض الفقيد ٢٦٠

الوفاة وجنازة الزعيم..... ٢٦٣

قصيدة حافظ إبراهيم..... ٢٦٦

رثاء الزعيم وحفلات التآبين ٢٦٩

رثاء شوقي لمصطفى كامل..... ٢٧٠

حفلة التأبين الكبرى – يوم الأربعين ٢٧٥

خطبة محمد بك فريد ٢٧٥

قصيدة إسماعيل باشا صبري ٢٧٧

قصيدة حافظ إبراهيم..... ٢٨٠

قصيدة خليل مطران..... ٢٨٥

تمثال مصطفى كامل..... ٢٩١

حفل إزاحة الستار عن تمثال مصطفى كامل ٢٩٣

obeikandi.com

مقتطفات من أقوال الشعراء والكتاب لمناسبة حفلة إزاحة الستار ٢٩٧

قصيدة خليل مطران ٢٩٧

كلمة الأستاذ محمود العمري ٣٠٢

قصيدة أحمد محرم ٣٠٥

جوائز مصطفى كامل ٣٠٧

١ – المباراة الأدبية ٣٠٧

٢ – جائزة كلية الحقوق ٣٠٧

٣ – جائزة كلية تولوز ٣٠٧

كلمة الأستاذ محمد محمود جلال ٣٠٨

ضريح مصطفى وفريد..... ٣١٠

الاحتفال بنقل رفات مصطفى كامل ٣١٢

الاحتفال بنقل رفات محمد فريد ٣١٣

الفصل السادس عشر

الخديو عباس الثاني

التاريخ السياسي والتاريخ الوطني..... ٣١٦

نشأة الخديو عباس الثاني..... ٣١٦

ارتقاؤه العرش ٣١٦

obeikandi.com

الحوادث المهمة في عهده ٣١٧
(أزمة فرمان سنة ١٨٩٢) ٣١٧
أزمة إقالة الوزارة الفهمية..... ٣١٨
تأليف وزارة رياض باشا..... ٣٢٠
شعور الأمة إزاء هذه الأزمة ٣٢٠
موقف الدول ٣٢١
أزمة الحدود سنة ١٨٩٤ ..... ٣٢٢
استقالة وزارة رياض باشا وتأليف وزارة نوبار ٣٢٣
وزارة مصطفى فهمي باشا (الوزارة الطويلة)..... ٣٢٤
أهم الحوادث في عهدها ٣٢٥
إنشاء البنك الأهلي..... ٣٢٥
بيع البواخر الخديوية ٣٢٥
بيع أملاك الدائرة السنية ٣٢٦
الشروع في بيع سكك حديد السودان..... ٣٢٧
حوادث السودان..... ٣٢٧
حملة دنقلة سنة ١٨٩٦ ..... ٣٢٧
واقعة فركه..... ٣٢٩

obeikandi.com

واقعتا الحفير ودنقله ٣٣٠
استرجاع (أبي حمد) و (بربر) ٣٣٠
واقعة عطبره ٣٣٠
واقعة أم درمان واسترجاع الخرطوم..... ٣٣١
رفع الراية البريطانية على السودان ٣٣٢
اتفاقية ٩ يناير سنة ١٨٩٩..... ٣٣٢
تعديل الحدود بين مصر والسودان ٣٣٢
تمرد في الجيش المصري..... ٣٣٢
زيارة الخديو للسودان ٣٣٣
افتتاح سكة حديد بور سودان ٣٣٤

الفصل السابع عشر

مصطفى كامل و الخديو عباس الثاني

صلة الخديو بالحركة الوطنية..... ٣٣٥
(كتاب الفقيد إلى فريد بك في ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨)..... ٣٣٨
قطع علاقته بالخديو خطاب ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٠٤ ..... ٣٣٩
(خطاب الفقيد إلى فريد بك في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٧) ٣٤٣
في مذكرات الخديو عباس الثاني عن مصطفى كامل ٣٤٤

obeikandl.com

الفصل الثامن عشر

مصطفى كامل وتركيا

الفصل التاسع عشر

مجلس شورى القوانين

أدوار المجلس..... ٣٦٠

الدور الأول: دور الخضوع والاستسلام..... ٣٦٠

الدور الثاني: المعارضة ٣٦٠

الدور الثالث: دور التراجع..... ٣٦٣

الفصل العشرون

مصطفى كامل ومعاصروه

أصدقاؤه الأقربون ٣٦٥

محمد فريد ٣٦٥

رسائل مصطفى كامل إلى محمد فريد..... ٣٦٥

لطيف باشا سليم ٣٧٣

على بك فخري..... ٣٧٥

أصدقاؤه وأنصاره..... ٣٧٦

تلاميذه ٣٧٨

obeikandi.com

معاصروه من الشعراء والأدباء ٣٨٠
حافظ إبراهيم..... ٣٨٠
قصيدة حافظ في حادثة دنشواي ٣٨٠
قصيدة حافظ في حفلة مدرسة مصطفى كامل ٣٨١
قصيدة حافظ في استقبال اللورد كرومر ٣٨٥
قصيدة حافظ في شكوى مصر من الاحتلال..... ٣٨٧
قصيدة حافظ في استقالة اللورد كرومر ٣٨٧
قصيدة حافظ في الذكرى الأولى للفقيد..... ٣٨٩
شوقي ٣٩٣
قصيدة شوقي في الاحتفال بالعيد المئيني لولاية محمد علي ٣٩٣
قصيدة في ذكرى دنشواي..... ٣٩٨
قصيدة شوقي في ذكرى الفقيد سنة ١٩٢٥ ..... ٣٩٩
قصيدة في ذكرى الفقيد سنة ١٩٢٦..... ٤٠١
إسماعيل صبري ٤٠٣
خليل مطران ٤٠٦
أصدقاؤه وأنصاره في الشرق والغرب..... ٤٠٩
مصطفى كامل وطلعت حرب..... ٤١٠

obeikandi.com

مصطفى كامل ومصطفى فهمي ٤١٢

مصطفى كامل وسعد زغلول ٤١٢

مصطفى كامل وبيير لوتي (ص ٤٠٩) ٤١٣

الفصل الحادي والعشرون

شخصية الزعيم

دراسة شخصية الفقيد ٤١٨

إيمانه برسالته ٤١٨

صفاته وأخلاقه ٤١٩

وطنيته ٤٢٠

سبيله إلى الوطنية ٤٢١

بعض كلماته الخالدة في الوطنية ٤٢٢

عبقريته ومكانته السياسية ٤٢٦

سياسة نحو النزلاء ٤٣٠

سياسته الشرقية والإسلامية ٤٣٠

مقدرته الخطابية ٤٣١

مقدرته الصحفية ٤٣٢

فضله على الحركة الوطنية ٤٣٣

obeikandi.com

فضله على الوحدة الوطنية..... ٤٣٨

تضحياته ٤٣٩

الفصل الثاني والعشرون

نماذج من خطب الفقيد

١ – خطبته بالإسكندرية يوم ٣ مارس سنة ١٨٩٦ ..... ٤٤٢

٢ – خطبته بالفرنسية في الإسكندرية يوم ١٣ أبريل سنة ١٨٩٦ ..... ٤٤٧

٣ – خطبته في العيد المئيني لولاية محمد علي ٤٥٦

٤ – خطبته بالإسكندرية يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ..... ٤٦٩

فهرست الكتاب..... ٤٩٥

obeikandl.com

فهرست الصور

مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ٥

المنزل الذي ولد فيه الفقيد ٢٦

مصطفى كامل في السابعة عشر من عمره..... ٣٠

خطاب الفقيد إلى شقيقه علي فهمي بك كامل ٣٣

مصطفى كامل في التاسعة عشرة من عمره..... ٤٤

الصورة الرمزية التي قدمها مصطفى كامل إلى مجلس نواب فرنسا – يونيه سنة ١٨٩٥

..... ٥٨

مصطفى كامل في الحادية والعشرين من عمره ٦٠

مدام جولييت آدم..... ٦٥

مصطفى كامل في الثالثة والعشرين من عمره..... ٨٣

خطاب الفقيد إلى فريد بك في ٩ أغسطس سنة ١٨٩٨ ..... ١٢٨

خطاب الفقيد إلى فريد بك ٤ سبتمبر سنة ١٨٩٨ ..... ١٣٠

الأمير محمد إبراهيم..... ١٥٩

افتتاح نادي المدارس العليا ١٨٩

صورة أخرى للحفلة..... ١٩١

obeikandi.com

ساحة الإعدام في دنشواي – ٢٨ يونيه سنة ١٩٠٦ ..... ٢٠٣

إعداد أول المشنوقين الأربعة ٢٠٣

المشنوق الرابع في دنشواي ٢٠٤

خطاب الفقيد إلى فريد بك ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦ ..... ٢٢٥

مصطفى كامل (سنة ١٩٠٧) ٢٤٩

جنازة الفقيد ٢٦٨

تمثال مصطفى كامل..... ٢٩٢

على قاعدة تمثال مصطفى كامل يوم إزاحة الستار عنه..... ٢٩٥

الضريح الجديد لمصطفى وفريد – بميدان صلاح الدين، بجوار القلعة ٣١٤

خريطة استرجاع السودان (١٨٩٦–١٩٨٩) ٣٢٩

كتاب الفقيد إلى فريد بك في ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨..... ٣٣٨

خطاب الفقيد إلى فريد بك في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٧ ..... ٣٤٣

محمد فريد ٣٦٦

خطاب الفقيد على فريد بك في ١٩ يوليه سنة ١٨٩٨ ..... ٣٧١

خطاب الفقيد على فريد بك في ٢٢ يوليه سنة ١٨٩٨ ..... ٣٧٢

لطيف باشا سليم ٣٧٣

على بك فخري..... ٣٧٥

obeikandl.com

مصطفى كامل بين جمع من أصدقائه ٤١١

مصطفى كامل وبيير لوتي ٤١٣

عنوان الرسالة التي طبعت فيها خطبة مصطفى كامل بالإسكندرية يوم ١٣ أبريل سنة ١٨٩٦ ..... ٤٥٥

obeikandl.com

للمؤلف

حقوق الشعب:

يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الإنسان. طبع سنة ١٩١٢.

نقابات التعاون الزراعية:

يتضمن تاريخ التعاون الزراعي ومنشآته في أوروبا، ونشأة التعاون في مصر وتاريخه ونظامه، وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية. طبع سنة ١٩١٤.

الجمعيات الوطنية:

صحيفة من تاريخ النهضات القومية يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية في طائفة من البلدان الاقتصادية والاجتماعية. طبع سنة ١٩١٤.

تاريخ الحركة القومية (في جزأين):

الجزء الأول: يتضمن ظهور الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث وبيان الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر. وتاريخ مصر القومي في هذا العهد (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩)

الجزء الثاني: من إعادة الديوان في عهد نابليون إلى عهد ولاية محمد علي (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩).

عصر محمد علي:

يتناول تاريخ مصر القومي في عهد محمد علي (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٠).

عصر إسماعيل (في جزأين):

الجزء الأول: يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢).

الجزء الثاني: وفيه ختام الكلام عن عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢).

الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧).

مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال:

obeikandl.com

تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٢).

مصطفى كامل: باعث الحركة الوطنية

تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٩).

محمد فريد: رمز الإخلاص والتضحية

تاريخ مصر القومي من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤١).

ثورة ١٩١٩(في جزأين):

تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١ (في جزأين) الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦.

الجزء الأول: يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة. وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شبوب الثورة في مارس سنة ١٩١٩ ثم وقائع الثورة في القاهرة والأقاليم.

الجزء الثاني: وفيه الكلام عن مهادنة الثورة واستمرارها ومحاكمات الثورة ولجنة ملنر والحوادث التي لابستها ومفاوضات ملنر واستشارة الأمة في مشروع ملنر. والتبليغ البريطاني بأن الحماية علاقة غير مرضية. ونتائج الثورة في حياة مصر القومية.

في أعقاب الثورة المصرية (ثورة سنة ١٩١٩): في ثلاثة أجزاء:

الجزء الأول: تاريخ مصر القومي من إبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة سعد زغلول في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧)الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧)..

الجزء الثاني: تاريخ مصر القومي من وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ إلى وفاة الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨- سنة ١٩٤٩).

الجزء الثالث: تاريخ مصر القومي من ولاية فاروق عرش مصر في ٦ مايو سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥١ (الطبعة الأولى سنة ١٩٥١).

مقدمات ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢:

(الطبعة الأولى سنة ١٩٥٧).

obeikandi.com

الكفاح في القنال سنة ١٩٥١ – حريق القاهرة سنة ١٩٥٢.

وزارات الموظفين – أسباب الثورة – فاروق يمهد للثورة.

ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢

تاريخنا القومي في سبع سنوات ١٩٥٢–١٩٥٩ (طبع سنة ١٩٥٩)

تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة:

من فجر التاريخ إلى الفتح العربي (طبع سنة ١٩٦٣).

تاريخ مصر القومي:

من الفتح العربي حتى عصر المقاومة والحملة الفرنسية طبع بعد وفاة المؤلف.

مذكراتي (١٨٨٩–١٩٥١):

خواطر ومشاهداتي في الحياة.

شعراء الوطنية في مصر:

تراجمهم. وشعرهم الوطني. والمناسبات التي نظموا فيها قصائدهم الطبعة الأولى سنة ١٩٤٥.

مجموعة أقوالي وأعمالي في البرلمان: (مجلس النواب الأول) طبع ١٩٢٥

أربعة عشر عاماً في البرلمان:

في مجلس النواب سنة ١٩٢٤–١٩٢٥.

وفي مجلس الشيوخ من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥١ (طبع سنة ١٩٥٥).

obeikandl.com

كتب مختصرة

مصطفى كامل:

باعث النهضة الوطنية (طبع سنة ١٩٥٢)

بطل الكفاح. الشهيد محمد فريد: (طبع سنة ١٩٥١).

الزعيم الثائر أحمد عرابي:

الطبعة الأولى – يناير سنة ١٩٥٢)

جمال الدين الأفغاني: (طبع سنة ١٩٦٦)

بحث وتحليل معاهدة ١٩٣٦:

استقلال أم حماية (طبع سنة ١٩٣٦)

كتب لطلبة المدارس الثانوية:

(طبعة سنة ١٩٥٨-١٩٥٩).

مصر المجاهدة في العصر الحديث:

في ستة حلقات تشتمل على كفاح الشعب في عهد الحملة الفرنسية ثم كفاحه في العهود التالية إلى بداية ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

تحت الطبع

الطبعات الحديثة من:

- أربعة عشر عاماً في البرلمان: (طبعة ١٩٩٩).

  في مجلس النواب سنة ١٩٢٤ إلى ١٩٢٥

  وفي مجلس الشيوخ من سنة ١٩٣٩-١٩٥١

- الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي: (الطبعة الخامسة ١٩٩٩).

obeikandl.com